

فوائد سبب

فوائد سبب

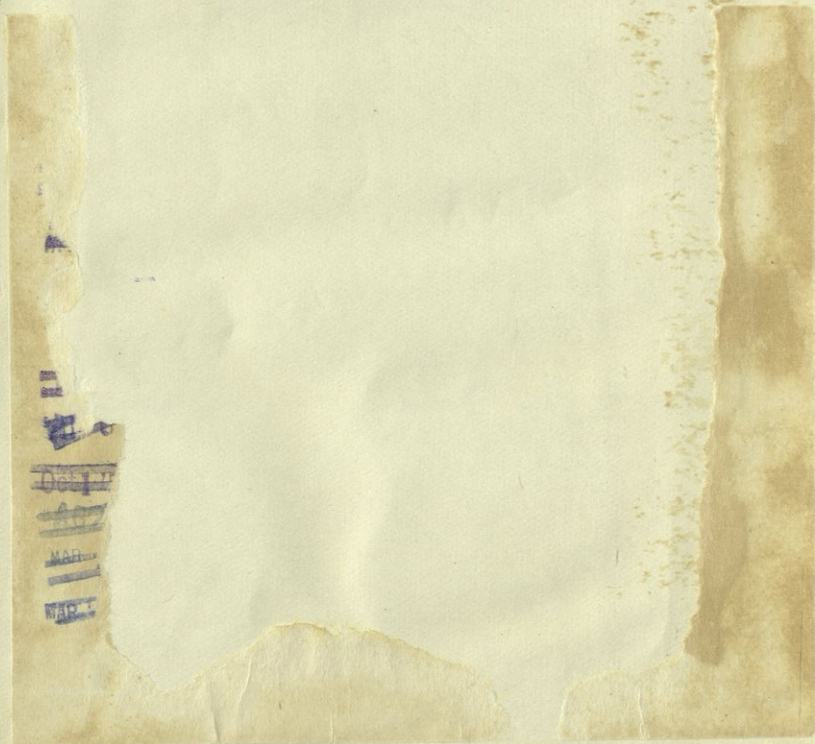
828
G624vaA

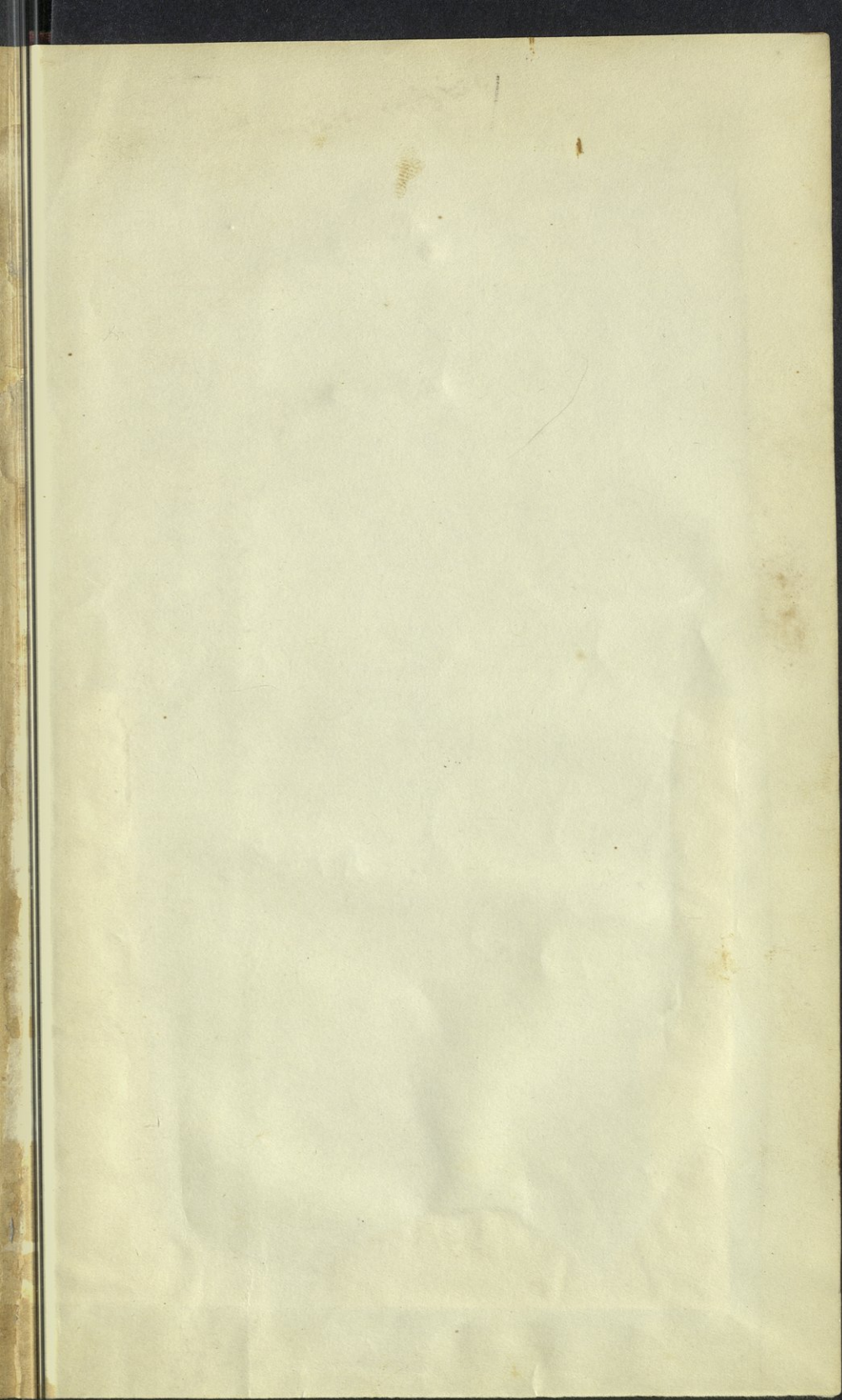
A. U. B. LIBRARY

قيلد

مالح الدقر

بيروت - المرح





828
G 624vaf

قس واكفيلد



تأليف

اوليفر غوام سميت

تعريب

حسن الناطور

ملتزم
الطبع والنشر

مطبعة البيان

ساحة رياض الصلح - بيروت

تلفون ٣٣٧٧٦

المؤلف

حياته في سطور

★ أوليفر غولد سميث ، كاتب وروائي وشاعر إيرلندي ، اشتهر بنزوعه الى محاربة النظم والتقاليد الاجتماعية البالية ، في كتاباته ...
★ ولد في العاشر من نوفمبر عام ١٧٢٨ ، في قرية «بالاس» من أعمال لونكفورد في إيرلندا ، لأسرة رقيقة الحال ، وكان أبوه تسييس القرية آنذاك وله من الاولاد ثمان اصغرهم أوليفر ...

★ هاجمه الجدرى في السادسة من عمره فطبع على وجهه تشويها ظلال يسمه طيلة حياته ...

★ في الثامنة من عمره ، ارسله أبوه الى مدرسه في القرية تديرها سييدة مسنة قالت انه «اغبي» طفيل رأته في حياتها ! .. لكن أوليفر لم يطق الحياة في ظل هذه المعلمة فارسله أبوه الى جندي متقاعد كان يعلم ابناء القرية القراءة والكتابة ويسرد على تلاميذه حكايات وأقايص عن الحروب وأحوالها ، واساطير الجن والاشباح ومغامرات العمالقة والاقزام ، فألهبت هذه الاقايص مخيلة أوليفر ، واججت جذوته المتقدة ، ووجهته منذ هذه السن الغضة الى الأدب وميادينه الفسيحة .

★ في السابعة عشرة من عمره ، التحق بكلية «ترينتي» في دبلن ، يتعلم فيها بالمجان مقابل بعض اعمال يؤديها لصالح الكلية .. لكنه لم يأبه لدروسه في الكلية ، فاخذ ينظم قصائد قصيرة يصور فيها جمال الطبيعة والحياة الريفية ، ولكن ادمانه على الخمر ولعب القمار وحاجته الملحة الى المال كانت تعذبه وتهصره ، فيجبر على بيع هذه القصائد مقابل خمس بنسات للقصيدة الواحدة ... ويذكر انه كان يخرج من الكلية متخفيا تحت جناح الظلام ليمسح قصائده تغنى في المسارح الشعبية المنتشرة بكثرة آنذاك - في القرى وقد سحرت الباب الجماهير .

★ اتسمت فترة دراسته في دبلن بالقلق المستوفز وبغضه لرتابة معيشته هناك . فعزم على السفر والتجوال في المدن والقرى ، فرحل الى ايطاليا

وفرنسا وهولندا ، سائرا على قدميه متجولا في القرى والارياف ، يعزف للقرويين على مزمار كان يحمله معه وبهذه الطريقة ، كان يحصل طعامه ومبيته . . .

★ عاد اوليفر في العام ١٧٤٩ الى لندن ، عازما على كسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه وكان اثناء غيابه عن بلاده ، قد درس الطب والصيدلة وحاول القيام باعمال مختلفة ، لكنه لم يبرح بوحدة منها اذ كانت نزعة الادب عنده غالبية على كل ما عداها وهكذا لم ينجح في عمل من الاعمال حتى كان تعرفه بالدكتور جونسون وكان زعيم الادب الانكليزي في القرن الثامن عشر بلا منازع . وكان له ندوة يختلف اليها الادباء والشعراء فكان فضل جونسون عليه كبيرا ، اذ لفت اليه الانظار ، فاقبل الناس على كتاباته يلتهمونها . .

★ جمع غولد سميث في ادبه بين الشعر والنثر وعالج الرواية التمثيلية والقصة الطويلة بنجاح ملحوظ ، وله عدة مقالات في موضوعات مختلفة ، منها مقالات كان قد كتبها على لسان فيلسوف صيني جاء لندن مصورا فيها حياة البؤس والفقر المنتشر آنذاك في انكلترا وقد عنون هذه «الرسائل» باسم المواطن العالمي ونشرها متسلسلة في احدى المجلات الانكليزية . . وتحتل هذه المقالات مكان الصدارة في الادب الانكليزي ، لما تمتاز به من صدق في التصوير وروعة في الاسلوب والسخرية اللاذعة !! .

★ اشهر مؤلفاته كوميدية (هزلية) بعنوان «تتمسكن لتتمكن» وهي لم تزل تمثل على اكبر مسارح ايرلندا وطن المؤلف ، وقطعة شعرية جميلة باسم «القرية المهجورة» وقصة واحدة خالدة في الادب الانكليزي وهي «قس واكفيلد» التي بين يدي القارئ الآن

★ توفي في الرابع عشر من ابريل سنة ١٧٧٤ ، ودفن في «مقبرة الهيكل» الخاصة بالعظماء من رجال انكلترا ، حيث نقش على قبره العبارة التالية ، من مرثية الدكتور جونسون له :

«لنتناس نقاصه ، فقد كان بالرغم منها رجلا عظيما !

(المعرب)

كنت ابدا ودائما من الذين يذهبون الى ان الرجل المتزوج ، الشريف النفس القائم على ادارة شؤون عائلة كبيرة العدد ، يخدم قضية سكان البلاد من حيث العدد ، اكثر من العزب ، الذى لا هم له سوى التحدث عن هذا العدد من السكان او ذاك ، لان العائلات الكبيرة تزيد في مجموع السكان ، فى حين ان مجرد التحدث عنهم لا يغنى قليلا . . .

وبناء على « مذهبي » هذا ، لم تمض سنة واحدة على سيامتى قسا ، حتى اخذت افكر جديا ، بمسألة زواجى . . . فاخترت شريكة حياتى كما اختارت هى ، ثوب عرسها ! لا يجاذب جمالها الجسدى ، بل يجاذب تلك المزايا ، الروحية الحميدة التى كانت تتحلل بها ابدا !! فقد كانت امرأة مثقفة ، على جانب كبير من الجمال : جمال الخلق وسمو التهذيب علاوة على مهارتها فى فن الطبخ الذى لم يتفوق به عليها ، سوى العدد القليل من اترابها !

لقد احببنا بعضا حبا جما خالصا ، نما وتزايد مع الايام وتعاقب الاعوام . والامر الذى لا مراء فيه ، هو اننا لم نستسلم يوما للغضب على احد من الناس ، مهما كانت الدوافع اليه شديدة . . . فقد كنا نسكن بيتنا ظريفا . . . يقوم على موقع جميل فى الريف . . . وقد عشنا — بحكم هذا الوسط — حياة بسيطة لذينة . . . فقد كان العام يمر ، مثقلا بتسليات ممتعة بريئة حيناً ، وبزيارة البعض من جيراننا الاغنياء ، حيناً آخر . . . وبالترفية عن نفوس الفقراء منهم ، احيانا . . . لم يكن ثمه « ثورة » نخشاه . . . ومع اننا كنا — عادة — نساء حياة المسرات والافراح ، وكانت نفوسنا تكره كثرة المباحج والمذات ، فقد كانت اتعابنا — غالبا — من النوع الذى يمكن ان تزيله ليلة هادئة نقضيها فى نوم هادى ساكن ، حالم مطمئن . . .

وحيث ان منزلنا كان قريبا جدا من الطريق العام ، فقد كان المسافرين يعرج عليه ويتذوق النبيذ الذى كنا نصنعه فى بيتنا ، والذى اكسبنا شهرة واسعة جدا ! والغريب فى الامر ، اننى لم اسمع انسانا واحدا ، استطاع ان يقول فيه سوء ! وكان اصداقائنا ، فى ذلك الحين ، يستذكرون صداقتهم لنا ، وكان اقاربنا — على الرغم من الشقة الواسعة التى كانت تفصلنا عنهم — ييممون وجوههم شطر بيتنا لزيارتنا ، الا ان بعض الذين يدعون قربابتنا ، لم تكن زياراتهم لنا لتضيف الى شرفنا شرفا عظيما ، لان كثيرين

منهم كانوا ، اما عميانا او مقعدين ، او ثقيلى الظل مزعجين .. وودت كثيرا
التخلص منهم ، لكن زوجتى كانت تلج على وتسرف في الحاحها في ان
اجلسهم على مائدة واحدة : تجمعنى واياهم باعتبارهم اقاربى من لحم
واحد ودم واحد !

لم يكن لنا اصدقاء كثر ، لكنهم كانوا - على قلتهم - سعداء بيننا ،
وما اقرب هذا القول المأثور ، انطباقا على الحياة : « كلما كان الضيف فقيرا
معوزا ، كانت ضيافته ادعى الى الرضى والارتياح » وكما يتفرس المرء
باعجاب في لون الزهرة الخلاب او فى اللون الفراشة وهى تمتص الرحيق من
انوار الزهر ، هكذا كنت بفطرتى : اشد الناس اعجابا بالوجوه البشرية
الباسمة ، السعيدة ، المستبشرة .

كنا هكذا سنين عديدة وحياتنا على احسن ما تكون سعادة وهناء ..
ما خلا بعض الفترات التى كان « القدر » يكدر علينا صفوها ، لكنى يزيد فى
قيمة فضله وكرمه ! وكثيرا ما تسلسل تلاميذ المدارس - فى غدوهم ورواحهم
الى حديثنا والتقطوا ما شاءوا وما طاب لهم ولذ من التفاح وغير التفاح
من ثمار .. وما اكثر ما اتخذت الهرة طريقها الى المطبخ ولعقت ما
طاب لها من الحليب ... اما السيد صاحب الاطيان والاملاك المجاورة ، فقد
كان يستسلم لنوم عميق فى الوقت الذى كنت اصل فيه الى اجل مقاطع
الموعظة التى كنت اقيها ، صباح كل احد فى الكنيسة ! ثم ان زوجتى لم
تكن لترد التحية اللطيفة التى كانت زوجتى تحيىها بها فى طريقها الى بيت
الله ، بالتحية الاثقة ، ولكن ما مر طويل وقت ، حتى افقنا من صدمة
هذا القلق الفكرى ، الناتج عن مثل هذه الحوادث .. ثم لم تمضى ثلاث
او اربعة ايام بعد حادث شبيه بذلك ، حتى كنا نتسائل ، مستغربين ،
استيائنا الشديد منه ..

لم ينشأ اولادى على التنعم والبذخ وقد شبوا جميعا ، حسنى المنظر ،
اصحاء الجسم ، فكان الابناء جريئين مقدامين ، ممثلين حيوية ونشاطا ،
وكانت الابنتان مثال الجمال والنضارة وكلما كنت اقف فى وسط افراد عائلتى
الصغيرة - التى ستكون عونى لى فى سنى كهولتى وانحطاطى - لا اتمالك
نفسى من تذكر قصة « الكونت اينسبرغ » الشهيرة ..

اما القصة ، فخلاصتها ، انه فى اثناء جولة الملك هنرى الثانى فى المانيا ،
جاءه بعض علىة القوم بكنوزهم وهداياهم الثمينة وقدموها له بوصفه
حاكمهم .. اما الكونت اينسبرغ فقد احضر اولاده ، وكان عددهم اثنين
وثلاثين ومنعهم جميعا لمولاه كآمن ما يمكن ان يقدم لملك ... هذا وانسى

وان كنت لا املك سوى ستة اولاد ، فاني ارى انهم اثم هدية يمكن ان
اقدمها لخدمة وطني المحبوب ، الذي اعتبره - بحق - مدينا لي !!

كان اسم البكر من اولادى : جورج كاسم عمه ، الذي ترك لنا مبلغ عشرة
آلاف جنيهه اما ولدنا الثانى ، فكان ابنة : وكنت قد صممت ان اطلق عليها
اسم عمتها (جريسيل) ، ولكن زوجتى أثبتت الا ان تسميها (اوليفيا) نقلا
عن اسطورة طالعتها اثناء الحمل ٠٠٠ ولم تمض سنة واحدة على ولادة
اوليفيا ، حتى ولدت زوجتى ابنة اخرى ، حينئذ عقدت العزم على ان
اسميها جريسيل ٠٠٠ لكن احدا لاغنياء من انسياننا اقترح علينا
تسميتها (صوفيا) وهكذا اصبح لنا في البيت اسمان ، مقرونين بكثير
من الزخرف والبهرجة . ويلى صوفيا ابنتنا موسى ، ثم بعد رده من الزمن
طويل ، دام اثني عشر سنة ، ولد لنا ابنان اخرين ٠٠٠

عشنا احوال نكران ابتهاجى وفرحى باولادى الصغار المحيطين بى احاطة
السوار بالمعصم . اما زوجتى فقد زهاها الكبر واطهرت من العجب
والفرح باولادها ما فاق فرحى بهم وعجبى ٠٠٠

فلما كان بعض الزوار يبدا اعجابه بهم ، بقوله ، مثلا ، « حقا ايتها
السيدة بمرور ، ان اولادك هم خير واجمل ما انجبت الامهات فى
بلدنا » ، تجيبه ، وقد اخذها العجب وملاء نفسها الغرور ، « اجل ، ايها
الجار الكريم ، ان السماء قد اسبغت عليهم من الجمال والفتنة ما يكفينى
فخرا بهم واعتزازا ، وارجو ان ينشأوا ايضا اولادا صالحين . فالجميل من
يصنع الجميل ٠٠ » ثم تلفتت الى ابنتيها : اوليفيا وصوفيا ، وتأمرهما
بدفع رأسيهما ، فتظهران جميلتان ، فتانان حقا ٠٠٠

انى اعتبر مجرد مظهر اولادى الخارجى ، امرا تافها . ولم يكن هذا
المظهر الخارجى عينه ، موضوع حديث الناس في الربف ، لاسدلت عليه ستارا
كثيفا من النسيان ، ولماعدت قط الى استذكره ٠٠٠

كانت اوليفيا في ربيعها الثامن عشر ، تتمتع بقسط وافر من الجمال
لا يقل عن جمال احدى آلهات الاغريق القدماء فتنة وسحرا ، وكان
وجهها مملوءا حيوية واقتدار . اما صوفيا ، فلم تبد جميلة جذابة
للناظرين ، في بادى الامر ، لكنها كانت تزاد فتنة وسحرا كلما
تأمل الانسان فيها وزادت الفتنة لها !!

وكما كان وجهيهما مختلفين ، كانتا ايضا مختلفتين في المزاج ! فقد كانت اوليفيا

تمنى النفس باستئثار اكبر عدد ممكن من المحبين المعجبين بها ، لكن صوفيا فلم تكن ترغب الا في ان تأمن على حبيب واحد فقط كانت اوليفيا تسلينى وتكرم وفادتى بما وهبت من ذكاء العقل وصفاء الفكر ، اوقات الفرح والهدوء . اما صوفيا فكانت تسلينى باحساسها المرهف ومشاعرها اللطيفة اوقات الجدة

تخرج ابنى البكر (جورج) من جامعة ، أكسفورد ، لاني كنت اريد له ان يمتهن عملا حرا يتطلب علما نبيلًا ، فيكون طبيبًا ام قسًا او محامًا اما ابنى الثانى (موسى) الذى كنت اريد له عملا تجاريا ، فقد نما وترعرع على شتى ضروب التربية في البيت .

- ٢ -

كانت زوجتى تدير شئون البيت المالية ، اما تربية الاولاد التنقيفية والدينية ، فكانت كلها تحت عهدةى انا وادراتى ، وان المبلغ الذى كنت اتقاضاه ، سنويا ، مقابل خدمتى فى الكنيسة ، لم يتعد الخمسة والثلاثين جنيهًا ، وكنت اوزعها على الفقراء من رجال الكهنوت : قانعا ، راضيا بثروة تقدر ببضعة الاف من الجنيهات وكان سرورى الوجدانى عظيما ، كقس : يعمل ويخدم بدون راتب .

كنت اميل دوما ، الى الوقوف على احوال جميع الناس المقيمين منهم على نشدان عيشة التقى والفضيلة ونصح العازبين منهم ان يتزوجوا بنساء صالحات فاضلات لذلك ، لم تمض بضعة سنوات على اقامتى فى « واكفيلد » حتى صار الجميع يلهجون قائلين : « ان واكفيلد بحاجة الى امور ثلاث : قس عظيم ، وعزب ينشد زوجة وفنادق ليؤمها شاربى الخمر » .

كان « الزواج » احد المواضيع الرئيسية التى احتلت مكان الصدارة في احاديثى الخاصة والعامة . وقد القيت عدة مواعظ في هذا الموضوع مبينا بالحجة التى ليس بعدها حجة ، والبرهان الذى ليس بعده برهان ، اسباب سعادة الحياة الزوجية . وكان بعد ذلك ، ثمة اعتقاد شخصى ، كنت ادعمه دعما شديدا : الا وهو « عدم شرعية زواج كاهن الكنيسة الانكليكانية للمرة الثانية بعد وفاة زوجته الاولى »

ولعل من الاسباب التى شجعت ابنى على التعلق بحب ابنة السيد . « ويلموت » (احد رجال الدين) فور تخرجه من الكلية والرغبة في الاقتران

بها ، ما كان يسمعه منى ، مرارا وتكرارا ، بشأن الزواج . وكان السيد
ويلموت يشغل منصبا رفيعا في الكنيسة ، وباستطاعته ان يمنح ابنته
مهرًا كبيرا ، لكن مهرها هذا ، لم يكن وحده ليشفع بها لدينا فقد كانت
في نظر الجميع فتاة على جانب كبير من جمال الخلق ، لا ينضب لصحتها
وشبابها وحيويتها معين ! ناهيك عن براءتها وصفاء بشرتها ونضارة وجهها
التي تأخذ بمجامع القلوب وتسلب العقول ، حتى ولو كان الناظر اليها
كهلا هرما

كان السيد ويلموت يعلم ، ان باستطاعتي ، انا ايضا ، ان امنح
ابنتي هبة من المال لا بأس بها ، لذلك ، لم يمانعها هذا الزواج ، من ثم ،
عاشت العائلتان معا ، تربطهما رابطة الصداقة ، التي تسبق ، عادة ، اتحاد
عائلتين عن طريق المصاهرة ، واذكنت مقهنتعا ، عن معرفة واختبار ، ان ايام
الخطبة والصباية ، التي تسبق الزواج هي اهناء واسعد ايام الحياة على
الاطلاق ، فقد عملت جهدي على اطالة مدتها بكل رضى وسرور هذا ،
وان اسباب التسلية والنهوال التي كانت تجمع الخطيبين معا ، كانت تزيد في
شغف احدهما بالآخر

كنا احيانا ، نستيقظ في الصباح الباكر ، على نغمات الموسيقى العذبة ،
واحيانا اخرى ، كنا نمتطى الخيل بقصد القيام برحلة صيد في غابة
من الغابات المجاورة ، اما في الفترة الواقعة بين وجبتى الفطور والغداء
فقد كانت تصرفها السيدات في المطالعة وارتداء الثياب

كانت زوجتي تتسلم قيادة الحديث اثناء تناول طعام الغداء ، مصرة ، مع
ذلك ، على خدمتنا على المائدة وكانت تقدم لنا الوان الطعام والشراب
بنفسها ، وكانت في الوقت نفسه تشرح لنا اصل كل لون وكيفية
طبخه واصل المواد المركب منها . وبعد الغداء كانت ابنتينا تسلياننا بحفلة
موسيقية تحت اشراف مدرس الموسيقى فكانتا تارة تغنيان واخرى تعزفان
على الالات الموسيقية . . اما ما تبقى من النهار فكانا نصرفه بالتنزه خارجا
او بتناول الشاي او في حفلة راقصة ريفية او بالقيام ببعض الالعاب البيتية
للترفية والتسلية

ما لعبت الورق قط ! لانني كنت امقت المقامرة وكل لعب من اجل المال
ان الاثنين والخمسين ورقة التي يتألف منها ورق اللعب ، قد دمرت اكثر من
اثنين وخمسين الف بيت ، وقضت على مثل هذا العدد من الثروات قضاء

مبرما ... وعلى الرغم من انها مجرد قطع مصنوعة من الورق ، فانها دعيت
- بحق - « قرميد الشيطان »!

ودامت الحال بنا هكذا بضعة شهور ، حتى اقترح احدنا تعيين يوم
يجرى فيه عقد قران العروسين اللتين ابديا رغبة صادقة في اتمامه . ولا تسلب
عن شدة اهتمام زوجتي وانهما كهما بالامر اثناء الاستعدادات لهذا الحدث
الجليل ! اما انا فكنت آنئذ ، منصرفا انصرفا كليا الى اتمام كتاب آمل ان
يتم طبعه ، فاخرجه الى العالم ، حاملا دفعا مجيدا عن الشرع القائل : « ان
الكاهن في الكنيسة الانكليكانية يجب ان لا يتخذ لنفسه زوجة ثلانية ، بعد
وفاة زوجته الاولى . » واذ كنت اعتبر كتابي هذا ، اروع ما دبجت يراعة كاتب
في الموضوع اياه ، فاني لم اتردد في عرضه على السيد ويلموت ، بكل ما في
نفسى من اعتزاز وفخار ! ولم اكن اشك قط ، في ان الكتاب سيصادف
قبولا حسنا ورضى تام من السيد ويلموت ، لكننى بعد ذلك اكتشفت
انه . متمسك بعقيدة مغايرة كسل المغايرة لعقيدتى ، شديد التمسك بسبب
واحد ، واستطيع ان اقول انه كان في ذلك الحين ، يراود المرأة الرابعة
ويتودد اليها ويطارحها الغرام ، وقد قام بينى وبينه جدال عنيف ضار ،
حول الموضوع - وهذا ما كنت اتوقعه فعلا - اعقبه مشاجرة كادت تقطع
رباط المصاهرة الذى كان سيربط العائلتين بعضهما الى بعض ، ولكن ،
حدث قبل اليوم المعين لاجراء عقد القران فيه بيوم واحد ان تم الاتفاق
بينى وبينه على العودة الى البحث في الموضوع بحثا مسهبا ، مستفيضا ،
وديا خالصا ...

لقد دار البحث فعلا ، هذه المرة وبروح اكثر مودة واخلاصا من قبل
الطرفين ، وكما انت حجة السيد ويلموت ان كبار الكتاب والفهاء واولى الامر
في الكنيسة ، هم ابعد ما يكونوا عن الاخذ بهذه العقيدة او تأييدها !
اما انا ، فقد كنت اشد ما اكون تمسكا بعقيدتى هذه ، ثم رد على ثانية كالمرة
الاولى ولم يكن يتلقى منى الا الحجة بعد الحجة والبرهان تلو البرهان ،
على صحة هذه العقيدة ... وفي اللحظة التى وصل فيها الجدل الى اعلى درجة
من الحرارة ، جاء احد انسبائى ، واستدعانى الى الخارج ، وكانت ترتسم
على وجهه كآبة محزنة ، وطلب الى ، ناصحا ، ان اضع حدا للمناقشة ، ولو
الى حين ، حتى تتم مراسم الزواج

فصرخت في وجهه : « لماذا؟ أنصرف عن قضية حق لي في وقت كاد خصمى
يلقى فيه سلاحة ويسلم بعقيدتى ؟! أحر بك ان تطلب منى التنازل عن

ثروتى بدل ان « تنصحنى » بالعدول عن مثل هذا الجدل . » فقال ، وقد بدا وجهه اكثر كآبة من ذى قبل : « الان يؤسفنى ان اخبرك ، ان ثروتك قد آلت الى العدم فالتاجر اللندنى الذى استودعته ثروتك ، قد فسر ، بعد ان خسر كل ماله ، وما لك ايضا . . . لم اكن لارض لك ولعائلتك هذه المصيبة ولا ان تسمعوا بها قبل عقد قران ابنك . . . اما الان ، وقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، فلعلها تخفف من حدة الجدل القائم بينك وبين السيد ويلموت ، واطنك ستكتكم الخبر عن الجميع ، حتى يرى ابنك عروسه وثروتها في مأمن بين يديه . »

فاجبت الصديق : « ان كان ما قلته لى حقا ، وان قدر لى ان امسى فقيرا ، استعطى في الازقة ، فلن يجعلنى هذا او ذاك ، لصا ويحملنى على نكران مبادئى ! . . وسأذهبن ، حالا ، واطلع الجماعة على الحانة التى صرت اليها . اما بشأن الجدل ، فلن اتوانسى في استرداد « النقط » التى سلمت بها لصالح السيد ويلموت (العجوز) اثناء المناقشة . »

عينا استطيع وصف مختلف التأثيرات والانفعالات التى بدت على وجوه افراد العائلتين - عائلتى وعائلة السيد ويلموت - عندما اطلعتهم على خبر المصيبة التى حلت بنا ! ولكن اين هذه التأثيرات والانفعالات من تلك التى بدت على الحبيين والتى بدأ عليهما انهما سيكابدا نتائجها مكرهين !

اما ما نجم عن المناقشة والجدال ، فهو ان السيد ويلموت ، قد مال الان الى اتخاذ موقف الخصم العنيد ضدنا بعد ان كان قد مال ، قبلا ، الى انهاء المناقشة والاعتراف بسلام مبادئى ! ولكن حين سمع بالنكبة التى تنكبنا بها ، صمم على اتخاذ هذا الموقف منا ان البرج المائل ، الى جانب واحد لا يحتاج الى اكثر من لمسة خفيفة من يد القدر لتصبح اعاليه اسافلة !

— ٣ —

لم يبق امام عائلتى سوى أمل واحد ، عللوا انفسهم به ، الى حين ، وهو ان لا يكون لبناء النكبة التى اصابتنا ، نصيب من الواقع ولكن سرعان ما جاءنى خطاب من محامى في لندن ، يسرد لى فيه حقيقة الامر ويقول ان كل ما عملته بخصوص ثروتى لا شك فيه !

— ١٣ —

ان ضياع ثروتى ، امر تافه بالنسبة لى كفرد ، وما احسست به — من الجزع والاضطراب ، لم يكن الا من اجل افراد عائلتى ٠٠٠ اذ تحتم عليهم ان يدربوا انفسهم على ان يعيشوا كما يعيش سائر الفقراء المعوزين الا انه لم يسبق لهم ان عرفوا شيئا عن العوز والفاقة ولا كابدوا الفقر وكانوا به قانعين !

لم اسع الى كبح جماح احزانهم والامهم قبل انقضاء عشرة او خمسة عشر يوما ٠٠٠ لان الحزن اذا قمع سريعا دام طويلا فى الدهن وقرارة النفس وكنت آنئذ ، اشغل فكرى في تدبير عمل جديد ، اضمن به للعائلة المنكوبة ، العيش في مستقبل الايام ٠٠٠ واخيرا عرض على القيام بشغل احد المراكز القصية — كقس — براتب سنوى لا يتجاوز الخمسة عشر جنيها . فقبلت العرض ، مبتهجا ، وعقدت العزم على ادارة مزرعة صغيرة — بجانب عملى هذا — لزيادة دخلى ٠٠٠٠

وقد تحول جل اهتمامى ، بعدئذ ، الى ان اجمع ما تبقى من حطام ثروتى ، فبعد ان دفعت كافة الديون — اى مبلغ اربعة عشر الفا من الجنيهات — لم يتبقى لنا منها سوى اربعمائة جنيها ، ثم عملت جهدى في خفض كبرياء عائلتى الى مستوى يتلائم مع ظروفنا الجديدة ، ذلك لان اشقى الناس من كان فقيرا معوزا ، وكان فى الوقت نفسه متكبرا متشمخرا ! ٠٠٠

جمعت اولادى ، ذات يوم ، وقلت لهم : تعلمون ، ولا شك ، يا احبابى انه لم يكن باستطاعتنا ، بما اوطينا من فطنة وحصافه رأى ، ان نحول دون وقوع مصيبتنا الاخيرة ٠٠ وان ضياع ثروتى لم يكن من جراء طيشى وغفلتى ، بل من جراء جهل التاجر واقتقاره الى الحكمة والاستقامة ومع هذا كله ، ارى ان الفطنة والتعقل يستطيعان ان يخففا كثيرا من وقع خسارتنا ٠٠٠ نحن فقراء ، فينبغى ، اذا ، ان نكون حكماء ، فطين لنستطيع ان نوفق بين انفسنا والحالة الوضيعة التى صرنا اليها ٠٠ قد يتكبر الاغنياء ويترفعون ، لكن الفقراء يجب ان يكونوا متواضعين ٠٠ ما اكثر الاغنياء التعساء ، رغم كل ما نرى من مظاهر الابهة التى تحف بهم ! ٠٠ فلنصرف اذا ، عن ماضى زهونا وفخارنا ، ولنسج جهدنا لنبدا من جديد حياة هنيئة ، سعيدة ، مطمئنة ، تتمشى والحالة التى آلت اليها ٠٠٠ يعيش الفقراء سعداء في حياتهم ، فلماذا لا نعيش ، نحن ، سعداء مثلهم ؟! فلنكف من هذه اللحظة عن ادعائنا الغنى والثراء ٠٠ ونستطيع بما تبقى لنا من المال — ان نحيا حياة

سعيدة ممتعة واذا علمنا الشروعة المادية ، فلننشد ما هو اعظم من الغنى
والمال ! الا وهو - القناعة !»

حيث ان ابني جورج قد قطع شوطا واسعا في مضمار العلم والمعرفة فقد
عزمت على ارساله الى لندن حيث يمكنه ان يربح من المال ما يكفى حاجته
واعانتنا ايضا ، الا ان فراق الاصدقاء والاقارب يعتبر من اردل نتائج الفقر
وأدعاها الى الحزن والالام ! .. فقد جاء اليوم الذى وقفنا فيه نودع ابننا
للمرة الاولى فى حياتنا ! .. ودع ابننا البكر أمه وسائر افراد العائلة
وداعا مؤثرا ، امتزجت فيه دموعهم الحارة بقبلا تهم المتهبة .. ثم ، التفت
وطلب الى ان ان أصلى له وباركته .. فباركته من اعماق قلبي ، مضيفا
الى بركتي خمسة جنياهات كانت كل ما استطعت تزويده بها . ثم قلت
له : « بما انك ذاهب ، يا بنى ، الى لندن ، خذ هذا الكتاب المقدس معك ،
فيكون عزائك وسلواك في طريق سفرك : واذكر هذه الجملة فى الكتاب
« ايضا كنت فتى وقد شئت ولم اصدقا تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس
خبزا (١) » (مز امير ٣٧ - ٢٥) ليكون هذا الكتاب عزائك ، يا بنى ، وسلواك
في سفرتك ، ومهما كان حظك فى الحياة ، عد الينا نراك ولو مرة واحدة
في السنة .. وحافظ على طيبة قلبك دائما ، وكن شجاعا في الحياة والله
معك والى اللقاء !»

عهدت ابني فتى ، كريم النفس شريفا ، مقداما ، فلم اخشى ان اقذف
به الى مسرح الحياة ، واثقا من ان الدور الذى سيلعبه عظيما جسدا ،
سواء اخرج منه رافع الرأس منتصرا : او خافض الجناح مقهورا !

ان فراق ابني قد مهد الطريق الى رحيلنا نحن ، اذ لم ينقض سوى
بضعة ايام على سفره ، حتى شددنا رحلنا ويممنا وجهوهنا شطر بيتنا
الجديد ، وبعد مضي يوم واحد على سيرنا ، القينا رحلنا في مكان يبعد
عن مسكننا الجديد بنحو ثلاثين ميلا .

مكثنا ليلتنا في نزل وضيع في قرية قائمة على جانب الطريق العام ، فلما
دلنا صاحب الفندق على غرفتنا سألته ان يجلس معنا قليلا بعد العشاء
فأجابني .. ثم انه كان يعرف جميع الاماكن المجاورة التى كنا
وقتذاك ، ننتقل اليها ، وكان يعرف ايضا ، السيد «ثور نهل» صاحب
الاملاك والاطيان الذى سأحتل قسما من املاكه ، والمقيم في نقطة لا تبعد

١ - نقلنا ترجمة هذه الآية عن الكتاب المقدس العربى .

عن مركز عملى سوى بضعة اميال . وقد وصف لنا مدير الفندق ، صاحب تلك الاملاك ، اذ قال ، انه لا يعنى بشيء من امور الدنيا قدر عنايته باسباب اللهو والمجون ! وقد اشتهر ، بصورة خاصة ، بتودده الى السيدات وغرامه بهن ، وقد أصاب «نجاحا باهرا» في اكتساب قلوبهن وعواطفهن ، لكنه لم يكن قط مخلصا لهن !

ان ما سمعته عن السيد ثورنهل آلمنى كثيرا وحز في نفسى ، بخلاف ابنتى ، فقد اشرقت اسارير وجهيهما ، املا منهما في خوض نضال ، تخرجان منه ظافرتين ، منتصرتين ! اما زوجتى ، فلم تكن اقل منهما انشراحا وثقة بافتنانهما وحسن تأثيرهما !

واذ كانت عقولنا منشغلة بهذه الافكار والخواطر ، دخلت علينا زوجة صاحب الفندق ، تقول لزوجها ان السيد الغريب الذى امضى يومين فى فندقهما ، لا يملك حتى بنسأ واحدا ، وانه عاجز عن دفع الحساب لهما . فاجابها زوجها قائلا : «ان ما تقولينه مستحيل ، لاني رأيت الرجل نفسه ، امس ينقذ ثلاث جنيهات لشرطى لاخلأ سبيل جندى شيخ فقير وانقاذه من عقاب الجلد بسبب سرقة كلب !» فردت زوجته قائلة : ان ما قالته هو الحق . . . وان الرجل يستعد لمغادرة الفندق ، ويقسم انه سيسترد ماله بطريقة ما ! فطلبت الى صاحب الفندق استدعاء الرجل الغريب ، لانه لا بد ان يكون على جانب كبير من نبل العاطفه وكرم الاخلاق ، لما تسناه من خبرة مع الجندى الشيخ والشرطى ، فاجابنى الى طلبى ، اذ ما غاب عنا برهة قصيرة حث عاد الينا ، يصحبه شاب في مقتبل الثلاثين من العمر ، جميل الهندام ، يرتدى ثيابا تنم عن طيبة أصله وحسن مركزه . . . بدا الرجل فارغ القد ، جميل الشكل ، اما وجهه ، فقد علتة خيوط من التفكير والتأمل . . .

لما ترك صاحب الفندق غرفتنا ، لم اتمالك نفسى من الاعراب للشباب الغريب عن اسقى العميق على رجل أحيط بظروف محزنة ، قاهرة ، كهذه ، وعرضت عليه ، مساعدتى واخذ كل ما يلزمه من المال لدفع ما عليه من دين لصاحب الفندق . . . فاجاب الرجل الغريب ، قائلا : «انى اتناول منك المبلغ الذى تتكرم به على ، من كل قلبى يا سيدي ، وانه يسرنى ، ان عدم عنايتى بتوزيع مالى وتبذيرى ، قد اظهرالى ، الان ، حقيقة وجود رجال امثالك ، هم اكثر الناس احسانا و مروءة . لذلك ، التمس منك ان تذكر لى اسم وعنوان المحسن الى لكى يتسنى لى اعادة ماله مع الشكر ، بأسرع وقت ممكن ، فأرجوك يا سيدي ان تقول لى ما اسمك .»

عرفته باسمى واطلعتة على المصيبة التى حلت بنا مؤخرا . ثم ذكرت له المكان الجديد الذى انا بسبيل الذهاب اليه ، فهتف : «لقد خدمنى الحظ ، الان ، اكثر مما كنت امل ! لانى انا ايضا متجه الاتجاه عينه !» منسى يومين والفيضانات تمنعنى من متابعة سفرى . . . ولكنى امل ان نتمكن من عبور النهر غدا ، ان شاء الله !»

اعربت لى عن ابتهاجى بمرافقته ، وطلبت اليه الاشتراك معنا فى تناول طعام العشاء ، فاجابنى الى طلبى بعد ان اشتركت فيه زوجتى وابنتى . . . وسرعان ما بدا لنا حديث الرجل الغريب هذا ، ممتعا ، مهذبا : الامر الذى حملنى على طلب المزيد منه . لكننا كنا مضطرين الى ان نأوى الى فراشنا باكرا ، استعدادا لمجابهة آتاعاب ومشقات السفر فى اليوم التالى .

وفى صباح اليوم التالى ، ركبنا الخيل واستأنفنا السفر معا ، باستثناء مرافقنا الجديد السيد (برتشل) اذ كان يمشى على «التروتوار» المحاذى للطريق العام وحيث ان شدة الفيضان لم تكن قد خفت بعد ، لم نر بدا من استتجار دليل ، يسير امامنا فى الطليعة ، اما انا والسيد برتشل ، فقد سرنا فى المؤخرة ، وخففنا كثيرا من اثقال السفر ووعثاء الطريق ، باطراق حديث طريف دار بينى وبين السيد برتشل .

شىء واحد أدهشنى ! قالقارىء يذكرولا بد ، ان السيد برتشل كان قد استدان منى مبلغا من المال . . والمرء اذا كان مديونا ، فانه يحترم دائئه - عادة - ويكبره ، بل يكون امامه اكثر تواضعا فى مثل هذه الحال . . . لكن الامر كان على العكس مع السيد برتشل ، وهذا ما اثار دهشتى وعجبى ، فكان يبدى آراؤه بكثير من الثقة والشدة - بل بلهجة الامر ، فى بعض الاحيان - كانه «هو» الدائن ، فعلا ، وانا المديون !! وفى اثناء سيرنا كان السيد برتشل يشير ، الفينة بعد الفينة - الى منازل مختلفة ، كبيرة ، فخمة ، ويذكر لى اسماء بعض مالكيها ، ثم اشار مرة الى منزل طريف جدا ، وقال : «انظر الى هذا البيت الجميل ، فانه يخص السيد ثورنهل ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، يتمتع بشروة لا بأس بها ، لكنه مع ذلك ، يعتمد كل الاعتماد على احسان عمه السيد وليام ثورنهل : والسرو وليام يحتفظ لنفسه باليسير من رزقه ، فهو رجل قنوع ، ويسمح لابن اخيه بالتمتع بباقى ثروته ، وارزاقه ، وهو - اى (السرو وليام) يقيم الآن فى لندن .

فهمت متسائلا : «هل الشاب ، صاحب هذه الاراضى والاملاك ، ابن

أخى الرجل الذى اشتهر في كل مكان بفضائله ومكرماته وميزاته ؟
لقد بلغنى ان السر ثورنهل هو اكرم من عرف بين الناس واسبقهم الى عمل
الخير والبر والمعروف ، واكثرهم احسانا في عموم انحاء المملكة ! فاجاب
السيد برتشل قائلا : « ان ما قلتة او بالاحرى ، ما بلغك عنه ، ليس من
المبالغة في شيء ، فقد اكثر في عمل الخير والاحسان في سنين حدائته
الى حد بعيد . وكان قلبه هدفا لسهام اخف الالام ، سواء اكانت حقيقة
أم مصطنعة ، وكانت حياته كثيرة جدا بالنسبة لثروته ، فلما نقصت
ثروته وتضاءلت ايقن ان اولئك «الاصدقاء» الذين تألبوا حوله بجاذب
من كرمه واحسانه ، لم يكونوا اهلا للاعتبار ولا بالاحترام جديرين . . .
فان الانسان ، ان لم يهب قلبه ، لا ماله ، للآخرين ، لا يستطيع اكتساب قلوبهم
. . . ولقد اكتشفت ايضا ، ان . . . ان . . . عفو ، لقد نسيت ما كنت
سأقوله . . . وبالاختصار ، فقد رسم السر ثورنهل ، خطة جديدة يسترد
بها ثروته المفقودة ، فسافر ، منذ وقت قريب على قدميه ، لبلدان
أوروبا جميعها -- تقريبا -- دون ان يصرف بنسا واحدا ، حتى جمع
ثروة لا تضاهيها ثروته السابقة في ضخامتها ، مع انه لم يكن ، وقتئذ ،
قد تجاوز الثلاثين من عمره !

« وقد تعلم ان يكون معتدلا في معيشتة . . . فلا يستجيب لدواعي الضيق
والالم والعسر ، لا كثيرا جدا ولا قليلا جدا ! واصبحت هباته معتدلة ايضا ،
فلا هي بالكبيرة جدا -- كما كانت فى السابق -- ولا بالصغيرة ! . . . »

كنت متنبها بكل جوارحى ، الى حديث السيد برتشل ، الى درجة
لم اعد معها انظر الى الطريق امامى ، اثناء مسيرنا ! حتى ايقظتنا فجأة
صرخات استغاثة صادرة من عائلتى نفسها ، واذا التفت الى ناحية الصرخة ،
لمحت ابنتى الصغرى تصارع تيار النهر الجارف ! -- اذ كانت قد
سقطت من على ظهر الحصان ، فكاد يصرعها ، اذ غاصت تحت امواجه
مرتين !

لم يكن باستطاعتي التمرج عن الحصان للعمل على انقاذها ، اذ
احسست بجمود وبرود في مشاعري وعواطفى الى درجة لم اعد عندها
قادرا على القيام باية محاولة لانقاذها ، وقد ادرك السيد برتشل الخطر المحيط
بابنتى ، فرمى بنفسه الى النهر يصارع التيار والتيار يصارعه ، حتى انقذها
وحملها بين ذراعيه الى الضفة المقابلة . . . وهكذا نجت بعد ان كادت تلفظ
انفاسها وهى في الماء !

اما بقية افراد العائلة فقد عبروا النهر الى الضفة الثانية ، سالمين ، وهناك تيسر لنا ان نقدم شكرنا وشكر ابنتي الى السيد برتشل كما انها استمرت مستندة الى ذراع «منقذها» وهي تشكره - لا بلسانها فحسب ، بل بكل نظرة من نظراتها ! وفي عشيبة ذلك اليوم ، تناولنا الطعام جميعا ، في فندق اخر ، وبعد ان انتهينا من تناول العشاء نهض السيد برتشل واستأذننا بالانصراف اذ كان يستهدف مكانا اخر من الريف ...

اما نحن فتابعنا رحلتنا ، واذ كنا في الطريق ، نحو هدفنا ، صرحت لى زوجتى ، قائلة : ان اكبارها وتقديرها للسيد برتشل قد بلغا درجتهمما القصوى ، وانه لو كان على شىء من النسب الشريف ويملك من المال ما يؤهله لمصاهرة عائلة كريمة الاصل ، نبيلة ، كهائلتنا ، لما ترددت لحظة في تلبية مثل هذا الطلب !

عندئذ ، لم اتمالك نفسى من الابتسام من هذا الحديث المنطوى على كثير من الانفة والكبرياء ، ومع ذلك ، لم اكن جد مستاء من مثل هذا النوع من الغرور ، الذى يهدف الى جعلنا احسن حالا واهنأ بالا !

— ٢ —

لم يجاور مسكننا الجديد سوى عدد قليل من المزارعين الذين كانوا يحرثون ارضهم بانفسهم ، لانها كانت ملكالهم ، وكانت فلاحتهم لها جيدة ، اذ كانت تدر عليهم كميات وافرة من المحصول . . . وليسوا هم من الغنى الفاحش فى شىء ، ولا هم من الفقر المدقع فى شىء . . . ولما زاروا المدن الكبيرة فى حياتهم . . . فهم يقطنون هذا الريف . . . وهو يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من ضروريات الحياة . . .

ولما بلغ سكان الاماكن المجاورة خبر قدومنا الى القرية ، خرجوا لاستقبالنا باليستهم الفاخرة ، تتقدمهم جماعة من الموسيقيين ، وكانوا قد اعدوا وليمة فاخرة ، تكريما «لقسيسهم» الجديد ، الذى هو «انا» ! . . . وكان الحديث الذى دار بيننا على مائدة الاكل ، بسيطا جدا ، ليس فيه شىء من التفكير العميق او الفطنة لانهم قوم بسطاء ، لم يتعلموا استعمال الجمل الرقيقة المؤثرة ، ولا التلاعب بمفردات اللغة على وسعها ، او بالالفاظ على مختلف الوانها واشكالها . . . لكنهم كانت تضحكهم اتفه النكات واوهاها . فاستعيز الحديث عن المواضيع العلمية بالضحك والقهقهة !

قام بيتنا الجديد على سقف اكمة شديدة الانحدار تستره من الخلف غابة في منتهى الروعة والجمال ! وتنساب من امامه مياه النهر انسيابا جذابا ! اما المزرعة - مزرعتي - فكانت مساحتها ما يقرب من عشرين فدانا من الارض ، اى نحو « ٩٦٨٠٠ » ياردة مربعة من اجود الاراضى واخصبها !

كان مسكننا الاول مؤلف من طابقين : الطابق العلوى يشتمل على غرف للنوم ، والطابق السفلى مؤلف من « صالون » ومطبخ وغرفتين اخريين تحتهما ٠٠٠ اما مسكننا الجديد ، فكان يشتمل على طابق واحد ، وبالطبع ، ليس فيه سلالم للصعود والنزول عليها ، وكانت جدرانها مبيضة من الداخل بالجير - بحيث استرعى اهتمام ابنتى ، فصممتا على تزيينها بلوحات من رسم ايديهما ٠٠ كان لنا في بيتنا القديم غرفة للاستقبال طالما جلسنا فيها بعد العشاء لنتجاذب اطراف الحديث ونستمع الى نغمات الموسيقى الشعبية ، اما غرفة الاستقبال في مسكننا الجديد ، فقد استخدمت لغرضين اثنين في آن واحد ، للجلوس والطبخ وهذا ما جعلها اكثر دفئا ٠٠ مع ذلك ، فقد جعلناها غاية فى النظافة والترتيب ! ٠٠ فكانت الاوانسى والصحون غاية في الرواء ومرتبة ترتيبا جيدا فوق رفوف خشبية مثبتة على الجدار ٠٠

اما الكؤوس والقصع والقدر ، وباقى اوانى الطبخ ، فقد صفت على رفوف اخرى بشكل لا يقل ترتيبا وانتظاما ٠٠٠ وكان فى البيت الجديد ثلاث غرف اخرى : واحدة لى ولزوجتى وواحدة لابنتى وواحدة لباقى الاولاد . كانت ايامنا تضى ، فى البيت الجديد ، على النحو التالى :

كنا نهب من رقادنا كل صباح مع بزوغ الشمس ونجتمع فى غرفة الجلوس محيين بعضنا بعضا ، تحية الصباح اللطيفة (مراعاة منى لاصول الآداب الاجتماعية الصالحة) . ثم نجتو ، على ركبتنا للصلاة والدعاء الى الله عز وجل ، شاكرينه على كثرة مراحمة وانعامه علينا بيوم جديد من حياتنا ٠٠٠ وبعد ذلك ، نذهب - انا وابنى - الى العمل بينما تنهك زوجتى وابنتى فى اعداد طعام الفطور وكما كنا نبدأ عملنا مع بزوغ الشمس ، كنا نقف عن العمل عند غروبها ٠٠ ثم نعود الى البيت ، فيستقبلنا الاولاد بنظراتهم ووجوههم الباسمة ، والموقد بنارها المتأججة الدافئة ٠٠!

لم نكن لنخلو من الضيوف قط ، فطالما زارنا جارنا المزارع « فلامبورو » الكثير الكلام ، واطلعنا على كل ما كان يجرى حولنا ٠٠ ثم كان هناك ، ايضا ، موسيقارا ضريرا ، يؤم بيتنا ، ليصيب شيئا من

الخمير البيتية التي تابعتها صنعها ، فدامت - بذلك - لنا معها الشهرة التي اكتسبناها في الماضي لطيبتها وجودة صنعها !

كان يوم الاحد يوم التبرج والزينة ، وكم عللت نفسي بما كنت القيه من المواعظ ضد الكبرياء وتشامخ النفس ، ان ارى غرور ابنتي وتشامخهما الباطلين ، قد غلباهما على امرهما . لكن الواقع كان على غير ما كنت آمل واشتهدى فقد لازمهما الولع بالتبرج والشغف بالملابس الفاخرة والقبعات الجميلة ، حتى ان زوجتي نفسها ، كانت اشد ما تكون كلفا وتعلقا بثوبها الحريري الارجواني ، لاني سبقت وابديت اعجابي بها ، وهي في هذا الثوب عينه !

كان تصرفهن في الاحسد الاول لوجودنا في البيت الجديد ، شائنا ، ومخجلا لي حقا ، ففي الليلة السابقة ، كنت قد طلبت اليهن النهوض باكرا وارتداء ملابسهن استعدادا للذهاب الى الكنيسة ، لاني كنت احب دائما ان اكون فيها قبل كل انسان آخر . فاطعن الامر ، ولكن عندما اجتمعنا للذهاب معا الى الكنيسة ، بددت زوجتي وابنتاي في ابهى الحلل وافخر الملابس ، وكانت علامات الزهو والكبرياء بادية على وجوههن ، كما كن يفعلن سابقا . . . فمن ضجر الشعرا لي اظهار محاسن الوجه «المصطنعة» الى البسة حريرية يرفلن بها رفلا ! . فلم يسعني الا الابتسام ازاء هذا الغرور الخادع - وبخاصة ذاك الذي بدا جليا على زوجتي التي كنت آمل ان تكون اكثر رصانة وحكمة - فلم يسعني - ساعتئذ - الا ان دعوت ابنتي موسى وامرته بلهجة جادة قوية ، ان يحضر لنا عربة لتقلنا الى الكنيسة ، فذهلت الفتيات ، واستغربتا طلبى هذا ، كانهما لم تصدقا آذانهم ! فكررت الطلب بصوت اكثر مهابة وأوقع في النفس منه في المرة الاولى . فالتفتت الى زوجتي وقالت : «اطنك تمزح ، يا عزيزى ، لسنا بحاجة الى عربة تقلنا الى الكنيسة لاننا نستطيع ان نمشي اليها دونما تعب !»

فاجبتها قائلا : « انك لعلى خطأ ، يا صغيرتى ، اننا في حاجة ماسة الى عربة ، لاننا اذا مشينا الى الكنيسة ونحن في هذه الالبسة الفاخرة وهذه الزينة البارزة نصبح اضحكة لاولاد الازقة ومثارا لهفتاتهم المستهجنة - الماجنة !! »

فردت زوجتي قائلة ، وكانها تخاطب نفسها : «كنت اخال دائما . . .» فقطعت عليها الكلام وقلت : «يمكنك ان تكن انيقات في ملابسك حسبما تشتهين ، ولكن هذا الذي اراه ليس الاناقة والنظافة ، انما هو

التبرج عينه ! .. ان هذا الشعر المصفور وهذه الملابس وهذه الوجوه «المزخرفة» ستكون عاملا كبيرا على اثاره كوامن الحقد والكراهية ففى قلوب نساء الحي والجيران ! لا ، لا ، يا عزيزاتي ، ان هذه الملابس يجب استبدالها بغيرها ابسط منها زينا والطف شكلا وادعى الى الرضى والارتياح ! ذلك لان الالبسة الفاخرة اصبحت غير لائقة بنا ، بعد ان صرنا عاجزين عن الحصول على المال اللازم لابتياح الالبسة الضرورية ! .. ولعلها لا تليق ، ايضا ، حتى بالاغنياء هذا اذا اعتبرنا امكانية ستر اجسام الفقراء - بالالبسة الفاخرة - غير الضرورية التى يتباهى الاغنياء بارتدائها !

كان لكلماتي هذه ، وقعها الحسن في قلوبهن ، فاسرعن ، توا الى استبدال «لبسهن .. وكم كان سرورى عظيما ، لما رأيت ابنتاي منهمكتين - في اليوم التالى - باقتطاع اذيال ثيابهن الطويلة ، ليصنعن منها صدرات للصغيرين من اولادى : دك وبل ! فبدت بتقصيرها اجمل واظرف من ذى قبل !

- ٥ -

كان القس السابق قد اقام «مقعدا» ، في مكان يقع على مسافة قصيرة من بيتنا تظله شجرة وازقة الاغصان .. ففى وقت يكون فيه الجو بدعيا ، والسما صافية الاديم ، وفى سكون الامسيات الجميلة ، كنا نؤم هذا المكان ، لنتمتع انظارنا بالمناظر الطبيعية الخلابة ، الممتدة على مسافات واسعة ، حيننا ، ولتناول الشاى احيانا اخرى ، وفي مثل هذه السوانح ، كان ولدى الصغيرين يقرأ لنا ، وكنت اطلب اليهما تسليتنا بمختلف ضروب اللهو . وكانت الابنتان تنشداننا الحانها المفضلة ، وتداعيان باناملهما اوتار القيثارة .. اما انا وزوجتى ، فكنا ننتبه مكانا على الجانب المنحدر من الحقل ، وقد كسسته الطبيعة بزهور الربيع البهية ، لتتحدث عن اولادنا وشؤونهم المختلفة ، ولنتنسم الهواء العليل ونتشمم شذى الربيع المنعش اللهم !!

خرجت ذات يوم - انا وعائلتى - وكان بدء فصل الخريف ، نقصد مكاننا المعتاد للتسلية واللهو ، وقد اخذت الموسيقيتان الصغيرتان تطرباننا بالحانها الشجية .. وفي هذه اللحظة لحنا ، على بعد عشرين خطوة منا ، ايلا جميلا ، يذهب الارض نهبا ، وقرناه المبسوطان المثلثان برأسه الضخم ،

- ٢٢ -

ينطحان الفضاء كأنه هارب من وجه صياد يطارده ... وما كادت الافكار
ترحمنا بشأن هذا الحيوان التعس ، والمصير المحزن ، الذى سيؤول اليه ،
حتى رأينا على مسافة قريبة منه ، كلاب القنص ، تتبعها الخيالة ، وهى
تنقب الارض بسنايك خيلها كأنها تخوض معركة حربية!! والذين تقدموا
من هواة الصيد ، قد مرقوا بجانبينا هروق السهم ! يتبعهم اربعة او خمسة
صيادين ، ايضا ، يستحثون جيادهم لتجرى باقصى سرعتها !! واخيرا ،
رأينا شابا يبدو ارفع منزلة من رفاهه الصيادة ، وانبل شكلا ، يتجه نحونا
.. وبعد ان تأمل وجوهنا برهة ، سلم زمام حصانه للرجل القائم على
خدمته ، ثم تقدم اليها ، مختالا ، متباهيا بشئ من العجرفة والاستهتار!

لم يقدم لنا نفسه ، حتى ولا ذكر لنا اسمه ، بل اخذ طريقه توا ، الى
حيث كانت تجلس ابنتى ليحييهما ، وبدا كالواثق من الترحيب به
ترحيبا لطيفا ، لائقا به ! الا انها تشجعتا ، ونظرتا اليه ببرود
عجيب ! لانهما كانتا قد تعلمتا سابقا ، كيف تواجهان مثل هذا الموقف
الجرىء الوقح !!

واخيرا ، قدم لنا نفسه ، وقال ان اسمه «ثورنهل» وانه صاحب جميع
الاطيان ، الممتدة على مسافات واسعة حولنا - وقد كانت ، فعلا ، تغطى
مئات من الافدنة ، من اطراف البقع فى تلك الجهات من الارض ! - ثم التفت
الى زوجته وابنتى ، وحياهن مرة اخرى ، فردن تحيته بمثلها ، ولم
يقابل بالصد بل نال حظوة فى اعينهن جميعا ، (فما اقوى سحر الغنى ، وما
ابعد تأثير الالبسة الفاخرة فى النفس البشرية !)

كان اسلوب حديث زائرنا بسيطا ، مؤنسبا بعض الشئ - وان
كان على شئ من الجراءة والوقاحة - لذلك ، ما مر طويل وقت على
اجتماعنا به ، حتى زادت اللفة ورفعت الكلفة ، ذلك انه لما لمحت عيناه القيثارة
على الارض ، طلب اليها التكرم عليه باسماعه انشودة لطيفة ..

من رأى انه ليس من مصلحة الفقراء فى شئ ، ان تبلغ صلتهم بالاغنية
مثل هذا الحد من التطرف .. قد تكون لنا معرفة باسماءهم ، والقابهم
على ان معرفتنا هذه ، يجب ان لا تتجاوز حدود التحية العابرة ... ان
اصدقاء المرء المخلصين ومعارفهم الحقيقيين ، يجب ان يكونوا مثله
منزلة ومقاما ...

وعليه ، فقد غمرت ابنتى ، مشيرا اليهما ان تتمنعا عن تلبية طلبه ، لكن
اهما اومأت اليهما برأسها ، ان تغنياه ولو اغنية واحدة ! ... فاطاعتها ،

وراحتا على الاثر ، تنشدان اغنية محبوبة ، من تأليف الشاعر الكبير
«درايدن (١)» !

التمعت اسارير وجه السيد ثورنهل واخذته نشوة من الفرح ، وطرب
لصوتهما ، فلم يتمالك نفسه من الهتاف والثناء عليهما ، ثم تناول
القيثار بيده ، وراح ينقر على اوتاره نقرات بلهاء منفرة ، ومع ذلك فقد
رددت ابنتي الكبرى على ثنائيه وهتافيه بثناء وهتاف اعلى منه ! ثم قالت له ،
ان نغمات صوته كانت اوقع في النفس وارفع من نغمات صوت استاذهما
المعلم فحنى لها رأسه استجابة لهذا التقدير ، فبادلته هذه المجاملة اللطيفة
بحنى رأسها هي ايضا ، ثم عاد يمدح بها ويثنى على ذوقها الموسيقي الرفيع
وحاستها الفنية ، فبادلته مديحة هذا بمديح اخر ، تناولت فهمه الصحيح
لها !!

من الواضح انهما لو تعارف احدهما بالآخر منذ عدة سنوات ، لما اظهرا
من التحاب وعدم الكلفة ، ما اظهرا في تلك الدقائق القليلة ٠٠! والغريب
في الامر ان الام الحمقاء ، التي طغى عليها الابتهاج والسرور بلزائير
الغريب ، لم تتوانى عن دعوتها له الى البيت ليتذوق كأسا من خمرها الذي
تصنعه بيدها ! وقد ظهر لى ، حينئذ ان جميع افراد العائلة كانوا يتسابقون
الى ارضائه وخطب وده ! فالابنتان حاولتا منادته ببعض المواضيع
الاجتماعية المتعلقة بالجيل الصاعد ، حسب ظنهما ، اما موسى ، الصغير فقد
ناظره في بعض مسائل ، نقلا عن بعض الكتاب الاغريق القدماء ، فاضحك
«الجميع ٠٠٠! أما دك وبل (الطفلين الصغيرين) فلم يكونا اقل انشغالا -
من باقى افراد العائلة - بالزائر الغريب اذ التصقا به ولازماء كظله ! وعلى
الرغم من كل محاولة بذلتها لاقصائهما عنه ، فقد استمر في تحسس ثيابه
الجميلة ، باصابعهما القدرة ورفع «ذيل» جيب سترته ، لعلهما يجدان
شيئا «غريبا» داخلها !

ولما تقارب المساء ، استأذنتا بالانصراف ، بعد ان طلب الينا السماح
له بتجديد زيارته لنا في الايام المقبلة ! - وباعتبار كونه صاحب الاطيان ،
التي نحتل قسما منها ، بحكم وظيفتي - فقد اجبناه الى طلبه بكل سرور !

سرعان ما توارى زائرنا عن الانظار ، حتى دعتنا زوجتي لعقد اجتماع ،
تتدارس فيه نتائج اعمال ذلك اليوم ٠٠ فكان رأيها ، ان المصادفة التي
جمعتنا بالزائر الغريب ، كانت ضربة من «القدر» سعيدة ! وذكرت - كذلك

(١) شاعر انكليزي (١٦٣١ - ١٧٠٠) اشتهر في عصره بترجمات
الشعرية الحرة للشعراء اللاتين وبخاصة ترجمته للانباذة . (المغرب)

— على سبيل المثال ، حوادث اخرى ، اكثر غرابة من هذه ، انتهت جميعها «باليمن والاقبال» وعلمت نفسها باقتراب اليوم الذى نستطيع فيه ان نرفع رؤوسنا عاليا ، ونعيش كما يعيش القوم الموسرين في البلاد !! واحتجت ، ايضا قائلة ، انها لا ترى سببا يبرر زواج الانستنان «ونكرز» برجال مترفين ذوى ثروات كبيرة ، وحرمان ابنتينا من نصيب كهذا !!

فاعترضت على هذا الجدل ، قائلة «انى لا ارى ، ايضا ، سببا لذلك ، ولا لربح السيد «سمكنز» جوائز بقيمة عشرة الاف جنيه وعدم ربحنا شيئا» فرفعت زوجتى عقيرتها ، قائلة : «انى اعرف نهجك في الحياة وخطتك التى تسير عليها دوما ! فكلمنا طابت قلوبنا ، وانبعث الامل فى نفوسنا ، تثبط من عزائمننا وتخمد فينا شعلة الهمم !! » ثم التفتت الى صوفيها ، وسألتها ، قائلة : «ما رأيك ، اينها العزيزة ، صوفيا بزائرنا الجديد ؟ الا ترى معنى ، انه ينطوى على كثير من طيب العنصر وكرم الاخلاق ؟!»

فاجابت صوفيا : «انه كذلك ، يا اماء ، بل انه اعظم من ذلك بكثير واطن انه على شئ لا بأس به من العلم والمعرفة ، لكنه كثير الكلام في المواضيع التافهة الزرية !»

ولكن اوليفيا صرحت ، قائلة : «انه ، ولا شك ، لين العريكة ، مسر بعض الشئ ، ولكن اذا اردتم الوقوف على رأى الخاص بشأن هذا الرجل ، فانى اقول ، بكل صراحة ، انه لم يصادف هوى فى قلبى ٠٠٠ وجرأته فى منتهى الوقاحة ، وبخاصة تعديه حدود الالفة ٠٠٠ واما عزفه على القيثارة ، فكان جد منفر مما لا يستسيغه الذوق السليم !»

واضح تماما ، ولا شك ، فى ارهذين التصريحين المناقضين ، كانا ينطويان على العكس تماما ٠٠ كانت صوفيا تحتقر السيد ثورنهل احتقارا شديدا ، فى حين كانت اوليفيا شديدة الاعجاب به ! ٠٠ عندئذ ، التفت اليهما وقلت :

«مهما كانت آرائكن فى السيد ثورنهل ، فانى اقر واعترف بانه لم يلق فى قلبى قبولا قط ! فعلى الرغم من انسه والبساطة التى يتظاهر بها امامنا ، فانه لم يغب عن فكره ولا عن ناظريه — طول وقت مكوثه معنا — الفرق الشاسع الفاصل بيننا وبينه ! فليتنا نحتفظ فقط بالاصدقاء والمعارف الذين تجمعنا وياهم منزلة واحدة ومقام واحد ٠٠٠ فما اشد ما يحتقر الناس ، الرجل الذى يسعى الى الزواج بامرأة من اجل ثروتها !! انه

في نظرهم خسيس النفس ، حقيرها ٠٠ لانه يجعل من الزواج طريقا للاثراء
كذلك المرأة ، ايضا ، فانسى لا ارى سببا ، يحول دون اعتبارها حقيرة
النفس ، خسيسستها ، اذا ما حاولت الاثراء عن هذا الطريق - عينه ! فاذا
كان السيد ثورنهل ، رجلا شريفا محترما ، ويفكر ، فعلا ، بالزواج ،
فلن تكون في نظر القوم ، سوى طالبى الشراء عن هذا السبيل ! وبالتالى ،
حقيرين ، خساسة ! ٠٠ وان لم يكن كذلك ٠٠ آه ! كلما فكرت في هذا
الموضوع ، تعترينى رجة وتصطك ركبتي ! انا لا اشك في حسن سلوك
ابنتى ، مطلقا ، ولكن ٠٠٠ يجب ان نحسب لاخلاق هذا الرجل ونخشى
سلوكه !

كنت اود ان اتكلم اكثر عن هذا الرجل غير ان خادمه افسد على الحديث
بدخوله ، علينا ، حاملا قطعة من لحم الابل ، ووعدا من سيده بتناول طعام
العشاء معنا في الايام التالية ٠٠

ان هذه الهدية التى جائتنا من السيد ثورنهل ، فى الوقت المناسب ،
قد قطعت على الكلام ، الذى كدت ان احط به من قيمته الشخصية فلم
يسعنى ، اذ ذاك ، الا الاخلاص الى الصمت ، والاكتفاء بالاشارة الى الخطر
المحدد ، تاركا امره الى زوجتى وابنتى للعمل على تجنبه واتقائه ، بما عرفن
به من رجاحة في العقل وقوة فى الروية !

- ٦ -

لقد تم الاتفاق على ان نتناول قسما من لحم الابل في عشية ذلك اليوم .
وقد اخذت الابنتان على عاتقهما ، اعداد الطعام بمزيد من الرغبة والحماس
فالتفت عندئذ ، الى عائلتى وقلت « انما يؤسفنى جدا ، هو حرماننا من جار
او قريب ، يشاركنا هذه الوليمة ٠٠ فالجار او القريب يتمتع بلذة مزدوجة
في الوليمة : لذة الاكل ، ولذة اكرام مضيفه له ٠٠٠ وهكذا تكسب الضيافة
صاحبها ، فرحا مزدوجا !

فصرخت زوجتى : « يا للغرابة ! هوذا صديقنا الكريم السيد برتشل
قادم ! ٠٠ الذى انقذ حياة صوفيا من الغرق ٠٠ والذى انتصر عليك في
ميدان الجدال والمناقشة !!

فاجبتها قائلاً : « بماذا تهرفين ، يا صغيرتي ؟! انك جد مخطئة يا عزيزتي فالذين يمكنهم ان يكتسبوا معركة الجدل منى ، هم اقل بكثير مما تظنين ثم انى لا انكر عليك براعتك في ادارة شؤون البيت ، ولا انكر عليك ، مهارتك في فن الطهى . لكنى ارجو ان لا تنكرى على براعتى في الحديث ومقدرتى الفذة في الجدل » .

فى هذه اللحظة ، دخل السيد برتشل البيت ، فرحبت به العائلة اجمل ترحيب وصافحه الجميع مصافحة ود خالصة ، بينما اسرع ذك الصغير واحضر له كرسيًا ليجلس عليه .

لقد سرت نفسى لصداقة هذا الرجل المسكين ، لانى أحسست انه بحاجة ماسة الى صداقتى ، وقد عرف بالحق « بالسيد الفقير » الذى كان يعوزه حسن التصرف فى سننى حديثه ، وكان اذا تكلم من حين الى اخر ، لا يخرج لسانه عن حدود المنطق والادراك الصحيح ، لكنه كان الى ذلك ، مغرماً بمرافقة الاولاد الصغار ، الذين اعتاد ان يدعوهم « بالرجال الصغار الامناء » ! واشتهر باناشيده التى كان يطربهم بها ، وبالحكايات التى يقصها عليهم ! وقبلما خرج من بيته دون ان يضع شيئاً فى جيبه ليعطيهم اياه : فمن قطعة من الحلوى ، الى صفاة او ما اشبه ذلك من لعب الاطفال . وكثيراً ما كان يؤم حيناً ليمضى فيه بضعة ايام من السنة ينزل فيها ضيفاً ، على هذا او ذاك من الجيران الاكارم .

جلس السيد برتشل بيننا لتناول طعام العشاء ، ولم تبخل علينا زوجتى بنبيذها الذى تصنعه فى البيت وكانت قصصه تنتقل من هذا الفم الى ذاك ، وقد غنانا بعض اناشيده القديمة وقصص على الاولاد بعض اساطير الجان اللطيفة !

كان ديكنا يصيح دائماً ، عند الفجر كأنه يأمرنا بالنهوض من الفراش . والغريب فى امر هذا الديك ، انه كان لصياحه فى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، نغمة خاصة تحمل لينا امره ايضا ، بأن نأوى الى فراشنا !

وقد تمثلت امامنا مشكلة ، لم نكن نحسب لها حسايًا ، الا وهى مسألة ايواء رجل غريب وقت النوم ، اذ كانت الأسرة كلها مشغولة ، وكان من العسير ان نرسله الى اقرب فندق يقضى فيه ليلته بعد فوات الاوان .

ازاء هذه « المشكلة » وقف ذك الصغير وقدم مكانه من الفراش الذى يشغله ، على ان يسمح له اخوه موسى ، بأن يشاركه فى سريره . ثم هتف بل قائلاً : « انى بكل سرور اقدم مكانى من الفراش للسيد برتشل ، اذا سمحت

لى اختاى ان اشاركهما سريرهما !»

فصرخت قائلا : « حسنا فعلتما ، ايها الولدين الصالحين ، ان اكرام الضيف من اولى الوجبات التى تقضى بها الديانة المسيحية ! » ثم التفت الى زوجته وقالت : « ايتها العزيزة «ديبورة» ، اعطى كلا من الولدين قطعة من الحلوى ، ولتكن قطعة دك الكبرى لانه كان اول المتكلمين !»

وفي الصباح الباكر ، دعوت جميع افراد العائلة للخروج معا الى الحقل لجمع البرسيم فعرض السيد برتشل مساعدته لنا فسررنا لهذا العرض . .
لم تغل عينى عن مراقبة السيد برتشل اثناء عمله وملاحظة رغبته الاكيدة في بذل معونته لابنتى صوفيا ، في الجزء المسئولة عنه من الحقل ، سواء في حصد البرسيم او جمعه . فلما كان ينهى القسم المخصص له في الحقل يشترك مع صوفيا في الجزء العين لهامنه ويطارحها حديثا مكنونا ، غير مسموع ، لكن معرفتى لادراك صوفيا جعلتنى اعتقد بانها ابعدا ما تكون انزعاجا وضيقا من رجل بائس ، معدم كالسيد برتشل .

وفي المساء ، بعد انتهاء يوما كاملا من العمل المتواصل ، دعونا السيد برتشل لقضاء ليلته عندنا كالليلة السابقة ، لكنه رفض الدعوة هذه المرة ، لانه كان قد وعد احد الجيران بالمبيت عنده تلك الليلة ، ولم ينس ان يحمل لابنه - ابن الضيف - ، صفارة ، حسب عادته ، كتذكاري ! ولما مضى عنا ، كان حديثنا على العشاء يدور حول هذا الضيف التعس ، الضعيف ، فقلت ، « كثيرا ما تكلمت في احاديثى الوعظية عن البؤس البذى يحيق بالرجل ، الذى يقضى على شبابه وثروته ، بتصرفاته الحمقاء وتبذيره الطائش الجنونى ، وهما كسم مثلا ، السيد برتشل . انه «صورة» الرجل التعس ، البائس تماما ! يا له من مخلوق مخذول ، حقير ! اين هم المتملقون ، المداهنون الذين لازموه فيما مضى من حياته ؟ . اين هم ؟ . ان الذين امتدحوه وتغنوا بالنساء عليه في الماضى ، يضحكون منه الان ، وبه يستهزئون !»

لم انطق بهذه الكلمات المرة المؤلة ، الا لاسباب خفية عندى ، لكن صوفيا لامتنى على ذلك بلطف ، اذ قالت : « مهما كانت سلوكه في الماضى فليس من الصواب ، ولا من الحكمة في شىء ، ان نلومه او نيكته عليه ! حسب عفايا على حماقته السابقة ما يعانيه الان من آلام الفقر والعوز . . وليس من حقنا ان نلوم انسانا او نيكته ، وقد عاقبه الله على حماقته وجهله !» وهنا قال ابنى موسى : « لست ادري ، ايتها العزيزة صوفيا ، ان كان هذا

الرجل تعسا حقا ، كما ظهر لوالدى ، مع انى لم ار انسانا اكثر انشراحا وجورا منه اثناء حديثه معك هذا اليوم؟

قال موسى هذا ، بمنتهى البراءة والسداجة ، غير ان صوفيا احمر وجهها خجلا منه ، وبدا عليها الارتباك فحاولت اخفاء خجلها وارتابها بصحكة ، قائلة انها قلما التفتت الى حديث السيد برتشيل ، ولم تعره اى انتباه . . .

ان الخجل الذى بدا على محيا صوفيا ، كان علامة لم ارض عنها قط! الا اننى كتمت ، مع ذلك ، شكوكى واخفيت ظنونى . . .

واذ كنا ننتظر زيارة المالك (صاحب البيت) في اليوم التالي ، اخذت زوجتى تقوم باعداد الطعام ، واشغل ابنى موسى نفسه بالدرس والمطالعة ، بينما كنت انا اقوم بتلقين ولدى الصغيرين دروسهما ، اما الابنتان ، اوليفيا وصوفيا ، فقد بدتا ، منهنكتين . . . فظننت اول الامر ، انهما كانتا «تطبخان» شيئا على النار من قبيل مساعدة امهمما في عملها . . . لكن ذلك الصغير ، جاءنى وهمس في اذنى ، قائلا ، انهما كانتا تعدان «غسلة» (١) لاجل الوجه ! ولما كنت شديدا الكراهية لكل غسلة ، مهما كان نوعها لانها تفسد على الوجه صفائه ونضارته الطبيعيتان ، بدلا من تحسينه . . . لذلك ، ادنيت كرسى من النار شيئا فشيئا ثم اخذت المسعر بيدى ، متظاهرا بتحريكها ، وكسر قطع الفحم فيها ، لكى يزداد سعيها توهجا . . . حينئذ ، دفعت الاناء بالمسعر دفعة واحدة خفيفة ، فانقلب على الاثر ، كما لو كان قضاء وقدر ! . . . وهكذا ضاعت عليهما «الغسلة» ولما كان الوقت قد فات انصرفنا عن تهيئة غسلة اخرى . . .

— ٧ —

كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق صباح اليوم الذى كان علينا ان ندعو فيه زائرنا الشاب ، صاحب الاطيان حولنا . . . ولهذه المناسبة ، لبست زوجتى وابنتاى ابهى واجمل ما عندهن من الملابس ، وما لبث السيد ثورنهل ان جاءنا مصحوبا بصديقان له : قسيسه الخاص وشخص اخر . وعند وصوله ، اقترح ، بكل ادب ، ولباقة ان يذهب خدمه (وكانوا كثيرى العدد) الى اقرب فندق ، لكن زوجتى المعروفة بغيرتها الشديدة وشهامتها النبيلة ، رفضت ، بكل اباء ، هذا الاقتراح ، واصرت على اضافة الجميع .

1) Wash

وكان من جراء هذه الضيافة ، ان اضطرت العائلة ، الى التقدير في الطعام لمدة ثلاث اسابيع !

كان السيد ثورنهل قد طلب يد الانسة ويلموت (خطيبة ابني جورج السابقة) مما جعل استقبالنا له اقل حماسا وحرارة ، لكن حدثا مفاجئا اعاد كل شيء الى نصابه ، اذ ذكر احد الضيوف - في سياق حديثه - اسم الانسة ويلموت ، فما كان من السيد ثورنهل الا ان يفوه بقسما غريبا ، اذ قال : « قبح الله وجهي ! ان كنت قد سمعت في حياتي كلها ، كلاما اقرب الى الحماسة والجنون من اعتبار هذه المخلوقة القبيحة « مثال الحسن والجمال » . ثم اردف بصوته الاجش : « قبح الله وجهي ان كنت لا استطيع في اى مساء ان اختار من « الشارع » وتحت ضوء الشمعة الباهت ، فتاة اجمل منها » فضحك لدعابته وضحكنا لها نحن ايضا (ولا عجب في ذلك ، فمزاح الاغنياء يسبق كل مزاح اخر الى الضحك والاستضحك حتى ان اوليفيا ، لم تتمالك نفسها من ان تهمس ، بصوت مسموع ، قائلة : « ان للسيد ثورنهل روحا فكاهية لاحد لها » !

وحسب عادتي ، دعوت ضيوفنا الكرام ، بعد الغداء ، الى شرب نخب الكنيسة الامر الذى جعل القسيسين - مرافق السيد ثورنهل - يشكرونى ويثنى على قائلا : « ان الكنيسة ، هي بالحق ، حبيبة قلبي دون منازع ! » فصاح السيد ثورنهل مقسما « لا ، لا ، ان فتاة جميلة اثنى عندي وافضل من جميع الكهنة والكنايس في العالم ! فما الدين سوى هذيان وادعاء باطل . . . ثم عقب ذلك جـدال سخيف حول الدين واموره . . بين السيد ثورنهل وابني موسى . . ولكن ما لبث السيد ثورنهل ، بما عرف عنه من قوة في البديهة والنكتة الحلوة ، ان اثار الضحك على موسى المسكين : فجلس متجهما الوجه حزينا في وسط جماعة قد طفق الفرح والسرور على وجوههم جلس في وسطهم هكذا ، حتى نهاية المائدة ، دون ان ينبس ببنت شفة ، بل دون ان يهتم به احد . .

ان حديث السيد ثورنهل لم يسرنى ، ومع ذلك ، كان له في نفس اوليفيا تأثيرا مغايرا ، لانها اعتبرت حديثه نوعا من انواع الفكاهة ، وحسبته رجلا على جانب من طيبة النفس ورقة الجانب . ولا شك عندي ان الذين يعتبرون الشكل الحسن واللبسة الفاخرة والثروة الكبيرة . . ان الذين يعتبرون هذه الصفات ، كلها اوبعضها ، من العوامل التى تجعل من الانسان سيدا محترما كريما ، لا يرون غضاة في الصفح عن ابنتى اوليفيا . . .

ان جهل السيد ثورنهل كان واضحا وضح النهار ، ومع ذلك كان يتكلم بسهولة وطلاقة ، كمن ملك ناصية الفهم والعرفان !! وعلى الرغم من حماقته وغبائته الظاهرتان فقد تحدث في المواضيع العامة بمهارة وبراعة عجيبتان ، وبأسلوب الرجل العاقل الحكيم !

تتعلم الفتيات ، اول ما تتعلم الاهتمام بالمظاهر الخارجية والعناية بها والمحافظة عليها ، اذن فليس من الغرابة في شيء ان ينخدعن بمظاهر الآخرين من الناس ..

على اثر انصراف ضيفنا وجماعته دخلنا ثانية في جدال عنيف ونقاش طويل ، حول مؤهلات اقطاعينا الشاب واستحقاقاته البارزة ... فراح بعضنا يؤكد ان للسيد ثورنهل مزايا عظيمة وصفات مدهشة جديرة بالتقدير والاعجاب !! واما البعض الاخر (وانا منهم طبعاً) فلم ير فيه اية ميزة او صفة حميدة من حيث الفضيلة وشرف النفس ... وليس من شك ان الغرض الذى كان يهدف اليه من وراء زيارته لنا ، لم يكن سوى خطب ود ابنتى اوليفيا ، بدليل تلك النظرات والاحاديث التى كان يخصصها بها اثناء وجوده بين ظهرانينا ... حتى ان اوليفيا نفسها لم تكن لتبدي اى استياء او نفور من الدعايات البريئة التى كان يثيرها اخوها واختها ، الفينة بعد الفينة ، بهذا الصدد ، وحتى زوجتى نفسها لم تتردد في مشاركة ابنتها « مجد » ذلك اليوم ومقاسمتها فرحة هذا الانتصار العظيم ، كانه انتصارها هي بالذات ..

«والآن ، يا عزيزى ، انى اقر واعترف ، بالحق والانصاف ، بانى انا التى اوصيت ابنتى بان تشجع السيد ثورنهل على التماهى في الكلام ! انى اقر بهذا صراحة ! لان الامال كانت وما زالت تراودنى !! وانك لترى الان ، انى كنت على حق فى هذا كله ، ومن يدري كيف ستكون الخاتمة ؟! » قالت زوجتى ذلك ، كأنها تريد ان تعرف حقيقة موقفى الراهن فاجبتها ، والحزن يمزق قلبى :

«اوه ، ايتها العزيزة ، من يدري ، على التحقيق ، كيف ستكون النهاية ؟! فانا من جهتى ، بكل صراحة اقول انى لست راضيا عن هذا كله ، مطلقا ! لان سرورى برجل فقير الحال ، شريف النفس ، يعادل اضعاف سرورى بمثل هذا «السيد الظريف» الغنى الخائن !! ان رجلا يعرض بالدين ويحط من قيمه الروحية ، شأن السيد ثورنهل ، لن يكون زوجا لاحدى ابنتى ما حييت !!»

عندئذ اجابت زوجتى قائلة ، ان كثيرين من معارفنا المعروفين بالفطنة والذكاء كانوا احرار الفكر في امور الدين المختلفة ، الى درجة الالحاد ، فاصبحوا ، بعد ذلك ازواجا صالحين وانها عرفت من الفتيات العاقلات ، من استطعن - بفضل ذكائهن وفطنتهن ان يهدين ازواجهن الى السراط المستقيم ... «ومن يدري ، يا عزيزى ما تستطيع ابنتنا اوليفيا ان تعمله بهذا الصدد؟» .



في صباح اليوم التالى زارنا السيد برتشل ، للمرة الثالثة في بحر ايام قليلة ، فبدأت احسن - بشئ من التبرم والامتناع من تكرار زيارته لنا ... ان الانس ... ان ليحد عند مضيقه الترحاب والقبول ، كلما كانت زيارته له في فترات متباعدة ... اما اذا تكررت زيارته دونما دعوة او مناسبة ، فانه - مهما بلغ من اللطف والايناس - لا يجد سوى النفور والامتناع ...

الحق اقول ان السيد برتشل قد فاق بخدمته لنا طاقتنا على تكريمه و اضافته كما يجب ، لانه ما فتى يعمل معنا بنشاط عظيم ، في حقل البرسيم ! علاوة على كونه ودودا ، دمث الاخلاق كيفما اختبرته ... وكان دائما يسيلنا ويحمل الينا اطراف النكات واحلاها . وعلى الرغم من كونه غريب الاطوار ، الى حد ما ، فقد كان مرهف الحس دقيق الشعور الى حد بعيد ، لذلك فقد احببته وهزأت به وشفقت عليه في آن واحد !! لكن الشئ الوحيد الذى جعلنى اشمئز منه ، هو اسرافه في تحببه الى ابنتى صوفيا ، حتى انه دعاها مرة ، على سبيل الدعابة بـ «حبوبته الصغيرة» وكان كلما احضر معه شرائط ، يخص صوفيا ، دون اختها ، باجمل شريطة وازهاها !

لست ادري سببا لتزايد لطفه وانسه يوما بعد يوم ، ولاح لى ان ذكائه بدأ يتحسن ويتطور حينما بعداخر ، لكننى استطعت اخيرا ان ارى في سذاجة حياته التى كان يحيها الحكمة والروية ...

تناولنا طعام العشاء في الحقل ، على مائدة رتب فوق طبقة من البرسيم ومما زاد بهجتنا على المائدة ، ما اسبغه علينا السيد برتشل من روحه المرحية ، الطيبة ... وكان للتغاريذ الشجية التى كنا نسمعها والتشى كان يتجاوبها طيران جاثمان على السياج المقابلة لنا ، ما اطربنا ، وانعش

نفوسنا! ٠٠ لم نرهما ، لانهما كانا مختبئين بين اوراق السياج ، مع ذلك ، كانت الحانهمما تصل الى اذاننا فنطرب لها ايما طرب ، وبعد قليل ، هبط علينا طير صغير يسمى «ابو الحن» (١) والتقط فتات الخبز من ايدينا ٠٠ ان كل صوت كان يوحى بجو عاطس بالطمأنينة والسلام ٠٠٠

بينما نحن كذلك ، اذا باننتى صوفيا تبدأ حديثا لذيذا قائلة : اننى كلما ضمنى مجلس كهذا ، افكر بدينك الحبيبين الذين وصفهما الشاعر «جى» (٢) في قصيدة له ، والذين فاجأهم الموت وهما ممسكين باذرعهما ٠٠! ان في هذا الوصف الرائع شيئا مؤلما ومجزنا جدا ! واننى لاراه وصفا دقيقا قد فاق الطبيعة في روعته وجماله لذلك ، قرأته اكثر من مائة مرة ، ولا ازال اقرأه كلما سنحت لى فرصة للمطالعة ٠٠٠

ساقنا هذا الكلام الى الحديث عن الشعر ٠٠٠ ثم اخذ السيد برتشل يتلو على مسامعنا قصيدة من نظمته يصف فيها غرام «اودين وانجلينا» وثناء تلاوة القصيدة بدت صوفيا جدمتلذذة ، وظهرت من الميسل والعطف الى ناظمهما استرعى التفاتنا ولكن سرعان ما كدر علينا صفوننا وطمأنينتنا ، طلق نارى ، دوى دويا شديدا ، على بعد خطوات قليلة منا ، ثم رأينا حيث مصدر الصوت ، رجلا يشق طريقه وسط السياج ، ليتلطف المخلوق الذى قتله !

لم يكن هذا الرجل سوى قسيس السيد ثورنهل الخاص ٠٠ وكان الطير الذى اصطاده هو احدى دينك الطيران اللذان كانا يطرباننا بانغامهما العذبة ٠ وكان لدوى الطلق النارى الذى اطلقه من القوة بحيث ذعرت على اثره ابنتاى واجفلتا ٠٠٠ وقد شاهدت ابنتى صوفيا - بعد ان اخذ منها الذعر كل مأخذ - ترتضى بين ذراعى السيد برتشل لحمايتها !

عندئذ ، تقدم الينا القسيس معتذرا عما حصل عن تصرفه من اضطراب وخوف ، واكد لنا انه لم يكن يعلم بوجودنا في تلك الناحية ٠٠٠ ثم اخذ مجلسه الى جانب ابنتى الصغرى وبروح رياضية سمحة ، قلم لها كل ما كان قد وفق الى صيده ذلك الصباح ، وسألها ان كانت تقبل هديته هذه ؟

كانت على وشك ان تجيبه سلبا ، لكن نظرة خاصة من امها ، حملتها على اصلاح خطأها ، فقبلت منه هديته وشكرته - مكرهة ٠٠ وهنا ، اماطت زوجتى اللثام - حسب عاداتها في مثل هذه المواقف - عن كبريائها وهمست قائلة : «ان صوفيا قد غزت قلب القسيس بجماها ، كما غزت قبلها

اوليفيا قلب السيد ثورنهل !! اما انا فشككت في الامر ، واعتقدت اعتقادا
راسخا بان قلب صوفيا قد انتقل الى قلب شخص اخر ...

وفي تلك الاثناء ، جلس القسيس شارحا الغرض من زيارته ، قال :

«جئتم لقضاء مهمة كلغنى بهـ السيد ثورنهل ... وان الغاية
السارة من حضوري اليكم ، هى دعوتكم الى تناول طعام العشاء معه على مائدة
جمعت الوان مختلفة من المرطبات . ولاحياء حفلة موسيقية راقصة ، وقد
اراد ان يمنح الانستين فرصة للرقص في ضوء القمر على المرجة الخضراء
قرب مدخل بيتكم * - واؤكد لحضراتكم انى جد سعيد بالقيام بهذه
المهمة ! ومعلوم ان للرسول مكافأة حين يبلغ رسالة ما ! .. وما اتوقعه
من الاجر والجزاء هو الشرف بجعل الانسة صوفيا شريكى في الرقص .

فاجابت ابنتى قائلة ، انها لا يمكنها ان تعد القسيس وعد شرف بان
تكون رفيقته في الرقص ، «لان هذا السيد» مشيرة الى السيد برتشل ..
«كان رفيقى وشريكى في كل اعمالى هذا اليوم ، لذلك يحق له ان يشاركنى
افراحى ومسراتى ..»

فشكرها السيد برتشل على حسن تفكيرها به واخلاصها له واعتذر
قائلا ، انه مضطر الى اجتياز مسافة خمسة اميال ، تلبية لدعوة احد
اصدقائه لتناول طعام «الحصاد» ! .. فكان رفضه دعوة ابنتى صوفيا ، ماثرا
للعجب والاستغراب ! .. الا انى لم استطع ، مع ذلك ، ان ادرك سر
تفضيل فتاة عاقلة - كابنتى صوفيا - رجلا فقيرا تعسا ، على رجل اخر
تعلق عليه الامال الجسام !!

ولكن ، كما ان الرجال قادرون على التمييز بين الغث والسمين من صفات
المرأة ومؤهلاتها ، هكذا النساء ، فأنهن قادرات على التمييز بين الصالح
والطالح منهم .. وكأنى بهذين الجنسين قد خلقا ليراقب احدهما الاخر
ويتجسس عليه ! .. فالرجل يمكنه الحكم على هذه المرأة او تلك ، بما
وهب من مزايا خاصة ، كما ان المرأة ايضا ، تستطيع - بما وهبت من قوة
على التمييز - ان ترى ميزات الرجل ومؤهلاته .

حالا استأذن السيد برتشل بالانصراف ، قبلت صوفيا مراقصه القسيس تلبية لطلبه ، واذا ذاك جاءني ولدای الصغيران راكضين ، واخبراني بان السيد ثورنهل بطريقه الينا ، ومصحوبا «بجماعة كبيرة» من رفاقه فالتفت الى حيث اشار الولدين ، فرأيت الزائر الكريم قادما ، يرافقه رجلان وسيدتان مرتديتان من الملابس ازهارها وافخرها فعرفنا بهما قائلا ، ان لهاتين السيدتان شأوا عظيما وجاها عريضا في المجتمع اللندني العصري ...

لم نكن نملك من المقاعد ما يكفي لجميع الزائرين ، فاقترح السيد ثورنهل ، على الفور ان يجلس كل رجل في حجر امرأة ، فعارضت الاقتراح معارضة شديدة . فلما سمعت زوجتي معارضتي الشديدة هذه ، طلبت الى موسى ان يستعير لنا كرسيين . ولما كان عدد الرجال يزيد عن عدد النساء باثنين ، فقد ذهب موسى برفقة رجلين ، للبحث عن سيدتين تشاركانهما الرقص ..

بعد قليل توفرت المقاعد والسيدات . فقد عاد الرجلان حالا ، وبرفقتهما ابنتا جارنا السيد فلامبورو ، وقد علت وجهاهما حمرة الشباب ، كما زينت كل منهما رأسها بشريط حمر اللون

ومع ان الانستان فلامبورو تعتبران من امهر الراقصات في الحى واكثر الفتيات معرفة بخطى الرقص البلدى ، الا انهما كانتا تجهلان خطى الرقص التى اعتادها السيد ثورنهل ورفاقه اللنديون - وقد عانتا ، مع ذلك شئ من الصعوبة ، في بادىء الامر ، اذ كان شريكاهما يجرانهما جرا حينئذ ويدفعانهما دفعا حينئذ آخر طبقا لخطوات الاتجاه : سواء الى الامام ، او التراجع الى الوراء ، واخيرا وبعد قليل من المرات سارت الامور على هواهم في جو ملئ بالفرح والسرور .

كان القمر اقوى ما يكون سطوعا عندما ابتداء السيد ثورنهل السهرة بمراقصة ابنتى الكبرى (اوليفيا) على مرأى من الجموع المحتشدة ذلك لان الجيران اذ ترامى الى مسامعهم خبر رقصنا وسمرونا ، تقاطروا ، جماعات ووحدا ، ووقفوا عند المرحاة الخضراء كانهم قطع من الغنم ...

كانت ابنتى اوليفيا تتنقل وتتمايل في رقصها برشاقة فائقة ، لم تستطع عندها زوجتى ، الا اما طة اللثام عن كبرياء قلبها وافتخارها ، فالتفتت

الى وقالت « لقد اجادت ابنتنا الرقص اجادة فائقة ، مع انها لم تتعلم خطى الرقص الا على نفسها ، وعبثا حاولت السيدتان اللنديتان ان تضارعاها رشاقة وخفة ... »

بعد مضي ساعة على بدء الرقص، اظهرت السيدتان خوفهما من ان تكون سمات الليل الباردة خطرا عليهما ، فتصابان بصداع او زكام مؤلم واظن ان احدهما اعربت عن شعورها بهذا الصدد ، بشيء من الخشونة والسماجة ، اذ قالت : « اننى اكاد اختنق من غزارة العرق المتصيب من جسمى . » لاشك ، ان الرقص فى تلك الليلة الحارة ، كان متعبا مضيا ، ولكن فى بعض الاحيان ، كانت تهب سمات باردة لذيدة فتلطف من حرارة الجو . وقد كان جبين السيدة - فعلا - يندى بالعرق ، لكن عبارة كنتك تصدر عن سيدة « راقية » لابد من ان يكون لها وقع سيء على سامعيها

واخيرا ، عدنا الى البيت ، فالقينا طعاما باردا شهيا للعشاء ، كان السيد ثورنهل قد احضره معه عند مجيئه . وكان الحديث فى هذه المرة اكثر رصانة وتهديبا وقد ظهر من السيدتان اللنديتين براعة فائقة فى الحديث تفوقتا به على ابنتى حتى لم يعد يحسب لهما فيه اى حساب فقد تحدثت السيدتان عن حياة البذخ والترف وما اشبه ذلك عدا عن مشاهير الشخصيات فى لندن ، ثم انتقلتا الى الحديث عن السينما والذوق حيننا ، وعن شكسبير حيننا آخر وكانتا - اثناء حديثهما - تتحسمان وتحلثان ، كأنهما تؤكدا للسامع كلامهما لكن هذا الاسلوب من الحلف والحماس لا تستسيغه الاذان واخيرا ، تبين لى ، ان الحلف في حديثهما تعمدها كعلامة تتميز بها وجاهتهما . ومع هذا ، فان البستهما الفاخرة قد اسدلت ستارا كثيفا على كل ما اظهرتاه من خشونة وسماجة وعلى الرغم من كونهما سيدتان على جانب كبير من الكبرياء والظرف ، فقد تلطفت احدهما وقالت ، انه لو اتيح للانسة اوليفيا فرصة ، تلقى فيها نظرة ابعد مدى على العالم ، لتحسن وضعها الاجتماعى تحسنا كبيرا . فاضافت الاخرى الى كلامها ، قائلة ، انه يكفى الانسة صوفيا قضاء شتاء واحد فى لندن ، حتى ترى الفرق العظيم بين حياة المدن وبين ما هى عليه الان . فوافقت زوجتى على الفور بكثير من الحماس ، اذ قالت ، انه ليس ثمة شيء تتمناه من صميم قلبها ، - من ان تمنح ابنتيها فرصة شتاء واحد ، « تصقلان » فيه نفسيهما فى مجتمع صالح راق . . .

فقلت : « لقد اصابنا ابتئائى حظا وافرا من الثقافة والتربية فاق حظهما من الثراء ، لكن المزيد من التهذيب و « الصقل » في المجتمع الراقى ، لا يزيدهما الاشعورا واحساسا بفقرهما واندفاعا في طلب المسرات واستذواق الملذات ، مما لا يحق لهما التمتع به في وضعهما الحاضر »

وهنا صرخ السيد ثورنهل ، قائلا : « ان الذين يهيون كثيرا من الافراح والمسرات للغير ، يحق لهم ايضا ، ان يتمتعوا هم بشيء منها على الاقل . . ان الحب والحرية والسعادة . . هذه الامور الثلاثة هي مطلبى الوحيد في الحياة ، ولو استطيع بنصف ما املك من عقارات واملاك ، ان اهرب الفتاة اوليفيا البهجة والسعادة لفعلت . . لكن المكربة الوحيدة التى اطلب اليكم التكرم على بها ، مقابل ذلك هي السماح لى ان اضيف نفسى الى مجموع هباتى هذه . . . »

لم اكن غريبا عن العالم حتى اجهله واجهل هذا الاسلوب من الحديث فى التعبير - بطريقة مهندبة - عن مطلب اقل ما يقال فيه ، انه دنىء ووقح . مع ذلك فانى بذلت جهدا عظيما لان اخفى غضبى عن اعين الحضور . . . لكن اعصابى لم تطاوعنى فصرخت به : « ان هذه العائلة قد نشأت وترعرعت على الشعور بقيمة الشرف والكرامه . . مثلك . . ان كل محاولة ترمى الى النيل منها ومن كرامتها ستكون انذارا بوقوع خطر داهم . فكرامتسا وشرفنا ، ياسيدى ، هما كل ما نملك في الوقت الحاضر . . لذلك يجب علينا ان نعنى باخر كنز لدينا عناية خاصة . . . »

ولكن سرعان ما احسست بالندم على اللهجة الحادة التى تكلمت بها ، اذ اسرع الى السيد ثورنهل ، وامسك بيدي ، بينا علت محياة ابتسامة لطيفة وقال ، انه معجب بمرؤتى وصراحتى ايما اعجاب وان انكر على طنونسى ثم اردف قائلا « انى اؤكد لك بالحجة والبرهان ، ان ليس ثمت شيء ابعد عن قلبى مثل هذا الظن . . »

ثم دخلت السيدتان في نقاش وجدال حول الفضييلة ، اشتركنا فيه جميعا ، انا وزوجتى وقسيس ثورنهل الخاص . . واخيرا ، فكر الضيوف بالعودة الى منازلهم ، فطلبت السيدتان ان اسمح لابنتى بمرافقتهم ولو الى مسافة قصيرة من الطريق ، فشئى السيد ثورنهل على الطلب ، ثم ما لبثت زوجتى ان « ثلثت » بتوسلاتها واستعطافها . . عندئذ التفتت ابتئائى نحوى ، كأنهما تستعطفانى وتتوسلان الى ان اسمح لهما بالذهاب لكنى . .

تمنعت عن اجابة الطلب، بشتى الاعذار ولكن عندما الحت ابتئى ، اضطرت
اخيرا الى رفض طلبهم جميعا بصراحة واضحة ٠٠٠

وفي اليوم التالى ، كنت اتلقى من زوجتى وابنتى - كنتيجة لرفض طلبهم
في الامس - نظرات الغضب العابسة واجابات مقتضبة خشنة ٠٠

- ١٠ -

كان العيد ، عيد القديس ميخائيل ٠٠ وكان جارنا « السيد فلامبورو » قد
اعتاد ان يقيم حفلة ساهرة ، ليلة كل عيل يدعو فيها اصدقاءه ، حيث
يتناولون طعام العشاء ويتسامرون ويلعبون - مختلف الالعاب المسلية
البريئة ٠٠٠ وكانت وزه العشاء - آنثذ - فاخرة شهية جدا ٠ وهكذا
قل عن الشراب المسمى « حزة الغنم » فقد اعتبره الجميع - حتى زوجتى -
من النوع الفاخر الممتاز ٠٠ والواقع ان اسلوب جارنا في سرد القصص
والحكايات ، لم يكن ممتعا او مستحبا اذ ان حكاياته كانت من ذلك اللون
من القصص الطويل الممل ٠٠ قصص مغامراته هو بالذات ٠٠ وكنا قد
ضحكنا لها في الماضى ما يقرب من عشر مرات ٠٠ ومع ذلك فقد تركمنا
هذه المرة ايضا ، واستمعنا لها وضحكنا للمرة الحادية عشرة ٠٠

كان السيد برتشل فى عداد المدعوين الى الوليمة وكان
مولع اشد الولع بمشاهدة الالعاب والتسلية البريئة ، فكان يجمع
الصبيان والبنات ويقوم معهم بلعبة « فتش عن الحذاء » وحيث ان اللعبة
قديمة جدا ، او الذين يعرفونها قليلون ، فقد رأيت من الضروري ان
اصفها - : تجلس الجماعة للعبة على الارض في حلقة مستديرة ، باستثناء
شخص واحد ، يخلع فردة حذاءه ويسلمها للجماعة الجالسة ، ثم
يتوسط الحلقة واقفا ٠٠ وفي هذه الاثناء يتنقل الحذاء بين ايدى اللاعبين
من تحت الركب ٠٠ وهنا يحاول الواقف في الوسط « صاحب الحذاء » ان يعرف
مكان حذاءه ليستعيده ٠٠ وبما انه من المتعذر على الشخص الواقف فى
الوسط ان يواجه الجميع في وقت واحد ٠ فان جمال اللعبة يبدو ، عندئذ
في ضربه بكعب الحذاء على اجزاء جسمه ، بحيث لا يستطيع تماما
الدفاع عن نفسه ٠٠

هكذا كانت آبتنى الكبرى ، فى وسط الحلقة ، تقع عليها الضربات
فتصرخ طالبه « العدل » في اللعب عندما دخلت السيدتان اللندنيتين

اللتان تعرفنا بهما مؤخرا ، وهما السيدة « بلارنى » والانسى « كارولين »
ويلهمينا امليا سكجنز .

عشنا احوال وصف ما اعترانا من الخجل والارتباك ، عند دخول هاتين
السيدتين لقد كان من العار علينا ان نرانا هاتين السيدتان المهذبتان
في وضع زرى مخز كهذا . ولكن لا يخفى ان السيد فلامبورو نفسه ، رجل
غير مثقف . . . سوقى . . من عامة الناس . . فليس غريبا ان لا تجد
في بيته سوى الغلاظة والخشونة .

وقد استحلنا جميعا احجارا صماء من جراء دهشتنا وحيرتنا . .

كانت السيدتان قد عرجتا على بيتنا لزيارتنا . . ولما لم تجدانا فيه
اسرعنا الى بيت السيد فلامبورو . . وعندما اخذتا مجلسهما ، شرعنا فى
الحديث واعربتا عن رغبتهما في ربط اواصر صداقة دائمة ، بينهما وبين
ابنتى : اوليفيا وصوفيا . .

كانت اللىدى بلارنى مولعة ولعا خاصا باوليفيا ، اما الانسى كارولين
ويلهمينا امليا سكجنز (التي احب ان اذكر اسمها بكامله) فقد مالت نفسها
الى صوفيا واستلطفتها ، ثم استمدتاني الحديث بينهما فقط . . بينما
جلست ابتناى صامتتان وهما اشد ما تكونا اعجابا بثقافتهما الرفيعة .

وحيث ان القارىء يود ان يطلع على محادثة بين سيدتين من عليقة
القوم ، وعلى قصص اللوردات والامراء والسيدات وغيرهم من الشخصيات
الكبيرة رأيت ان اسجل هنا ، خاتمة هذه المحادثة التى دارت بين هاتين
السيدتين . .

رفعت الانسى سكجنز صوتها قائلة : « . . ان كل ما عرفه عن
القضية ، هو انها قد تكون صحيحة او غير صحيحة ، ولكن الشئ الذى استطيع
ان اؤكد لك ، هو ان كل من كان في الغرفة قد اخذته الدهشة وتملكته
الحيرة . فالدوق امتقع وجهه والدوقة اغمى عليها . . اما السيد « تومكين »
فما كان منه الا ان امتشق حسامه . »

فاجابت اللىدى بلارنى : « ان ما استطيع ان اقله ، هو ان الدوقة
لم تعلمنى عن امرها شيئا . . ولا ظن انها تخفى عنى شيئا . »

وارى لزاما على في هذا الصدد ، ان اذكر سلوك السيد برتشيل السيء الذى
بدا منه اثناء المحادثة . . فقد جلس متجها بوجهه نحو الموقد ، وفي نهاية

كل جملة يسمعها يصرخ قائلا « كلام فارغ » لا شك ان هذه العبارة قد
استخطتنا وكدرت علينا صفونا اثناء الحديث ...

ثم تابعت الليدى بلارنى حديثها . « .. فضلا عن ذلك ، يا عزيزتى سكبز
فان الدكتور «برودروك» لم يذكر شيئا من هذه القضية في قصيدته التى
نظمها لهذا الغرض .. » - « كلام فارغ ! »

فأجابت الانسة سكبز : « ان هذا اليد هسنى حقا . الا يمكنك ايتها
السيدة ان تتكررى على بالقاء نظرة على هذه القصيدة ؟؟ »

- كلام فارغ

فردت الليدى بلارنى : « اوتحسين اننى احملها معى انى ذهبت ؟ فمما
اقل ما اقرأ هذه الايام ... اذ ان مرافقتى التى اقرؤها قد تركتنى لكى
تتزوج .. وانا بعد حتى اليوم لم اجد « مرافقة » اخرى تحل محلها ،
لانه ليس من اليسير العثور على واحدة لائقة ... هذا ، وان راتبنا سنويا
قدره ثلاثون جنيهها ان هو الاراتب ضئيل بالنسبة الى فتاة مثقفة
تستطيع ان تقرأ وتكتب جيدا ، ولتسلك سلوكا حسنا اذاء جماعه
من القوم الكرام .. اما من جهة البنات اللندنيات ، فانهن يجهلن آداب السلوك
الحسن .. » - كلام فارغ

فاجابتها الانسة سكبز قائلة : « انى اعلم هذا كله ، فقد كان عندى في
النصف الاول من هذه السنة ، ثلاث مرافقات : الاولى رفضت ان تصرف
ساعة واحدة في الخياطة البسيطة ، كل يوم ... والثانية ، اعتبرت راتب
خمسة وعشرين جنيهها في السنة ضئيلا جدا .. اما الثالثة والاخيرة ، فقد
اضطرت الى صرفها من خدمتى من اجل سوء تديرها في البيت .. الفضية
يا عزيزتى ، ليدى بلارنى ، فوق كل ثمن .. ولكن اين يمكننا ان نجدها
في هذا العصر ... » - كلام فارغ

كانت زوجتى تستمع بكل جوارحها الى هذه المحادثة التى دارت بين
السيدات .. لكن الجمل الاخيرة من المحادثة قد استرعت انتباهها بصورة
خاصة . - « ثلاثون ليرة استرلينية » وخمسة وعشرون جنيهها في السنة
جمعت المبلغ في عقلها .. ستا وخمسين ليرة استرلينية وخمسة شلنات . -
ياله من مبلغ كبير .. كان مجرد تقدمه ومن اليسير الحصول عليه من قبل
افراد عائلتنا ... فالتفتت الى ، تستقصى رأيي ، والحقيقة ان مركزين
كهذين يناسبان ابنتى كل المناسبة ، ثم اذا كان السيد ثورنهل يحب ابنتى

« اوليفيا » جيا صادقاً ، فبان مركزها الجديد سيكسبها من المزايا والصفات اللازمة ما يجعلها اهلاً لان تكون له زوجة ومديرة لشئون بيته الكبير . . .

عندئذ ، سمعت زوجتى تقول للسيدتان : « ارجو المذرة ، ايتها السيدتان ، ان قدمت اقتراحاً بهذا الشأن . انى ارى ابنتى اهلاً لان تكونا مرافقتين لكما . . وانه من الطبيعى ان ارجب في دفع ابنتى الى الامام في الحياة . . وانى آنس في نفسى الجراءة الكافية لاعلن لكما ، ان ابنتى قد نالتا نصيباً عظيماً من الثقافة والمعرفة . وقل ما يقال فيهما ، ان الريف لم ينجب - بعد - بنات مثلهما . . وهما تقرأن وتكتبان جيداً . ولهما الاما عظيم في مسك الحسابات المالية ، وهما ، ايضا متفهمتان في الخياطة على انواعها ، وهما فضلاً عن ذلك مملتان باصول الموسيقى ، وتستطيع ابنتى الكبرى ان تنسخ نماذج عن ورق الصحف ، واما ابنتى الصغرى ، فعازقة جدا في قراءة الحظ على ورق اللعب . . »

- كلام فارغ -

كان هذا الخطاب قطعة رائعة من حسن البيان وطلاقة اللسان بالنسبة لزوجتى . والحق اقول ، انى لم اسمعها قط - فيما مضى - تتكلم بمثل هذه البلاغة والفصاحة . .

تباحث السيدتان بعضهما الى بعض مدة دقائق قليلة ، بشيء من الريبة والاهتمام واخيراً ، قالت الانسة سكجز ، ان بالنظر الى المعرفة السطحية التى تمت بينهما وبيننا ، ترى ان الانستان تصلحان لمثل هذا العمل ، ثم وجهت الخطاب الى زوجتى قائلة . « ان مسألة على جانب كبير من الاهمية كهذه المسألة ، تتطلب الحذر والتبصر قبل الاقدام على اتخاذ قرار مستعجل فالقضية تقتضى الكشف عن اخلاقها كشفاً دقيقاً ، - وهذا لا يعنى ، يا سيدتى ، انى اشك في فضائل الانستان او في ادراكهما ، لكنى خلقت هكذا : حذرة بالطبيعة . . »

فاظهرت زوجتى موافقتها على حذر الانسة سكجز حتى استحال حذرهما ، بعده ذلك الى ريبة وطن ، ولما قاللت ان الجيران جميعاً ، يمكنهم الاجابة على كل استعلام بخصوص اخلاق ابنتى ، التفتت اليها السيدة وقالت ، انها لا ترى ما يدعو الى ذلك على الاطلاق ، فشهادة ابن عمها السيد ثورنهل تكفى .

عندما عدنا ادراجنا الى البيت صرفنا ليلتنا في وضع خطط ومشاريع لمستقبل يكتب لنا فيه النصر ٠٠ وكانت دبوره (زوجتي) كثيرة المشاريع ، كثيرة الكلام تقضى الليل كله في الشئرة في الموضوع الواحد ٠٠٠ حتى انها في تلك الليلة بالذات ، ايقظتنى - وكنت اغطي في سبات عميق - لتقول لى : « حسنا ، اى عزيزى شارل ، اظن اننا قمنا بعمل مجيد هذا اليوم ٠٠ فاجبتها دون ان ادري ما اقول : « اجل ٠٠ لا بأس به »

فصرخت كالملسوعة : « ماذا تقول ٠٠ لا « بأس به » فحسب ؟ اظن ان العمل كان عظيما جدا هب ان ابنتينا تتعرفان باصحاب الذوق السليم فى لندن ٠٠ واؤكد لك ان لندن هى المكان الوحيد في العالم ، الذى يوجد فيه من الازواج من كل جنس ولون ٠ فان كانت السيدتان الراقيتان قد ابدتا اعجابهما بابنتى ٠٠ فماذا يكون شأن الرجال معهما ؟ اسمع انسى اكن لليدى بلارنى حبا عظيما ، انها سيدة كريمة ، حقا ٠ مع ذلك ، فان بين ضلوع الانسة كارولينا ويلهمينا امليا سكجز ، يكمن قلبا كبيرا حارا كقلبي ٠٠٠ ولكن عندما شرعنا فى الحديث عن العثور على « مرافقتين » لهما في لندن ، لم البت ان انتهزت الفرصة اياها ٠٠ والان قل لى يا عزيزى . الم احسن الى ابنتى في ذلك ؟؟ »

فاجبتها ، دون ان اعى وافكر فى المسألة على الاطلاق : « اجل ! وادعو الله عز وجل ، ان يجعلهما اكثر اهلية واستعدادا لهذا العمل بعد ثلاثة اشهر من الان ٠٠٠ »

كانت هذه العبارة ، واحدة بين اشياء كثيرة اعتدت ان اقولها لزوجتى لاؤثر بها على عقلها ، فتسمو في حكمتى ونفسى ٠٠ حتى اذا ما كتب لهما النجاح ، تكون ملاحظتى ، عبارة عن أمنية دينية قد تحققت ، كان السماء قد استجابت لدعائى ٠٠ ولكن اذا وقع شئ مكروه ، فان ملاحظتى تكون - عندئذ - بمثابة نبوءة ٠٠ ففى كلتا الحالتين يجب ان تتأثر زوجتى : اما بدينى وتقواى او بقدرتى على التنوء

لم تكن هذه المحادثة سوى تمهيد لمشروع اخر من مشاريع زوجتى ٠٠ فقالت ، « بما انه صار بالامكان ان نرفع رؤوسنا عاليا - ولو قليلا - في العالم . ارى انه من الافضل ، نبيع الحصان القديم في السوق المجاورة ، ونبتاع حصانا تستطيع الابنتان امتطاءه ، فتظهر ان عليه بمظهر لائق جميل ، وهما

في طريقهما الى الكنيسة ، او اثناء قيامهما ببعض الزيارات ..

عارضت هذا المشروع معارضة شديدة ، لكن الدفاع عنه كان اشد واقوى وكلما وهنت في دفاعي ، كلما ازدادت قوة خصمي . واخيرا ، تقرر - نهائيا - التخلص من الحصان القديم . . .

كان مقررا ان تعقد سوق (حراج) عامة في اليوم التالي . . فغزمت ان اذهب بنفسى الى السوق ، لكن زوجتى اقنعتنى بالعدول عن ذلك لسبب الزكام الذى كنت اكابده انئذ ، لذلك لم استطيع حملها على التسليم بما عزمت الامر عليه والادغان لى ، عندئذ التفتت الى زوجتى ، وقالت :

« اسمع يا عزيزى ، ان ولدنا موسى - كما تعلم - ذكى وماهر فى البيع والشراء مع الريح الجزيل ! . . فهو يجادل ويساوم الباعة والمشتريين حتى يتعبدونهم ويفلح هو ! . . »

لقد كان لى رأى خاص في ابنى موسى وفي تحفظه ، وذلكما جعلنى اسلم بقيامه بهذه المهمة .

وفي صباح اليوم التالي ، رأيت اختيه منهمكتين فى اعداد اسباب سفره الى السوق العامة ، فكانت واحدة تقص له شعره ، والثانية تنظف ثيابه ، ثم ، ما عثم ان امتطى الحصان واضعا امامه صندوقا خشبيا ، لكى يضع فيه مشترياتة عند اوبته ، ثم شيعناه على بعد عدة خطوات من الباب ، داعين له بالتوفيق ، حتى غاب عن الانظار . .

ما كاد يمر طويل وقت على ذهاب ابنا موسى ، حتى جاءنا احدى خدم السيد نورنهل ومعه بطاقة موجهة الى ابنتى ، مفادها ، ان السيدتين قد تلقنا تقريرا سارا من السيد نورنهل ، عن كل فرد منا وانهما تأملان الحصول على القناعة التامة ، بعد اجراء بعض التحقيقات بهذا الشأن . فهتفت زوجتى « آه ! انى لارى الان ، انه ليس من السهل على الانسان الولوج الى قصور العظماء ، ولكن ، متى كتب ذلك ، يمكنه ان ينام ملء جفنيه ! »

فوافقت الابنتان على هذه « النظرة » من امهما بقبهقة عالية ، تنم عن الفرح والسرور كذلك كان فرح زوجتى عظيما ، حتى انها وضعت يدها فى جيبها واخرجت اربعة بنسات ونصف كانت كل ما في جيبها ، واعطتها للخادم !!

اما الشخص الثانى الذى جاءنا فهو السيد برتشيل . . جاءنا من السوق يحمل قطعتين من الحلوى من ذوات البنس الواحد ، وقدمهما للصغيرين دك وبيل ، وعلبتين لابنتى : اوليفيا وصوفيا ، لكى تضعا فيهما بعض الادوات الصغيرة والنقود . .

ما زلنا نشعر بشىء من الاحترام للسيد برتشيل ، فعلى الرغم من السلوك الفظ ، الذى بدى منه مؤخرا ، وعلى الرغم من سخطنا عليه جميعا . . فاننا نحس بجاذب الصداقة والشفقة نحوه . . !

عندما نطلع صديقا و قريبا معا يتجاذبا من هموم الحياة ومضايقاتها نحس باشتراكهما معاني عواطفه ومشاعره واذ يقاسمنا احزاننا والامنا ، نشعر بخفة وطأتهما . . وعندما نشركه في افراحنا تزداد اسباب السعادة والهناء . . فترى علامات السعادة بادية على صفحة وجهه كأنه مرآة تعكس ما يعتلج في باطنه . . ! وهكذا بالاشتراك ، تخف الهموم والاحزان وتزداد الافراح والمسرات . . !

وهكذا اشركنا السيد برتشيل افراحنا وطلبنا مشورته في الامر . . . ولما اطلع على الرسالة الواردة من السيدتين ، هز رأسه استنكارا ، وقدم ملاحظته قائلا : « ان مسألة من هذا النوع ، تتطلب الكثير من الحذر والتبصر ! »

اسخط هذا الاحجام والتهيب زوجتى ، فالتفتت اليه تقول ، « انك في كل مرة تقف موقف المعاكس ، سواء كان منى او من ابنتى ! » ثم اردفت بصوت عال « . . انك متطرف في حذرك اكثر مما يجب ! . . لذلك ، عندما احتاج يوما الى نصيحة ، فساطلبها من اولئك الذين استطاعوا ان يفيدوا انفسهم من النصائح ! »

فدافع السيد برتشيل عن نفسه قائلا : « ان تصرفي الخاص وما يمكن ان يكون عليه لا يمت بموضوع حديثنا - الآن - باية صلة على الاطلاق . . ! هذا ، وانى وان كنت لم افد من النصائح التى اسدت الى ، الا انسى ارى انه من اوجب واجباتى ان اسديها خالصة لمن ينتصحوون بها !! »

كنت اخشى ان يثير جواب السيد برتشيل غضب زوجتى فتشتمه ! - وكما تكون الحال - احيانا - مع احسن الناس اخلاقا . . فانهم يشتمون ويتلفظون باغلظ السباب وادناها ، تحت تأثير الغضب ، ثم يندمون بعد زواله لذلك ، غيرت مجرى الحديث متسائلا : « ترى ما الذى اخر ولدنا

موسى كل هذا الوقت في السوق؟! ان الشمس على وشك الغروب ...
والليل قد تقارب !! »

فصرخت زوجتى للحال : « لا تخشى على ابننا موسى ! .. فهو يعرف
ما يعمل ... فقد رأيته مرة يقوم بصنقات ، لو رأيته انت لادهشتك !
... وسأروى لكم قصة ، تنفلق لها جوانبكم .. من الضحك .. ولكن !
من ذا الذى ارى ؟ ! ها هو ذا موسى قادم بدون حصان ، والصندوق على
ظهره ! »

بينما كانت زوجتى تتكلم ، كان موسى يتقدم اليها متناقل الخطى ،
والعرق يتصبب من جسمه تحت تأثير ثقل الصندوق الخشبي المحزوم حول
كتفيه بحزامين جلديين طويلين ...

فهمت زوجتى : « اهلا وسهلا بموسى ! اى بنى ، ماذا احضرت لنا
معك من السوق ؟! »

— لم احضر سوى «نفسى!» قال هذا ، وهو يضع الصندوق على
الطاولة ، ويرمينا بنظرة خبيثة ! .. ثم صرخت زوجتى :
« نعم هذا نعرفه ، ولكن ايسن الحصان ؟! »

— لقد بعته ... بثلاث جنيهات وخمسة شلنات وبسنتين ! »

— حسنا فعلت ، ايها الولد الصالح ! انى كنت اعلم انك ستتفوق عليهم
بدهائك وسعة احتيالك ! .. ان السعر لعظيم جدا ... فهات الدراهم !
فرد موسى قائلا : « لم احضر معى دراهم ... لانى ابتعت بها هذه
الصفقة ! »

حينئذ ، مديده الى صدره واخرج رزمة وكانت ملفوفة لفا محكما .
وقال :

«هاكم الصفقة — اثنتى عشرة دزينة من النظارات الخضراء ضمن اطر من
فضة واغلفة من الجلد ! .. »

فقال زوجتى ، وكانها تقرأ جملة فى كتاب : « اثنتا عشرة دزينة
من النظارات الخضراء ! — لقد بعث الحصان ولم تحضر لنا معك سوى
اثنتى عشرة دزينة من النظارات الخضراء ... التافهة ! »

فصرخ موسى في وجهها ، قائلا : « اماه .. لماذا لا تستمعين لوى العقل ؟! »

لقد جئت بك بصفقة سنوية ورابحة جدا ، والا لما اقدمت على ابتياعها ! ان الاطر
الفضية وحدها تساوى ضعف ثمن النظارات !»

فاستشاطت زوجتي غضبا ، وقالت «اطر فضية ! ٠٠٠ لن تباع هذه الاطر
باكثر من نصف ثمنها الاصلى ، لاعتبارها «فضة مسحوقة» ، اى بنحو
خمس شلنات للاوقية الواحدة ! - او ما يعادل ستين شلنا للرطل الواحد!!»

فقلت لزوجتي : «لست بحاجة لان تبىع الاطر ، يا عزيزتى ، او ان تفكرى
فى بيعها ! ٠٠٠ فقيمتها لا تتعدى الست بنسات ، لانها مصنوعة من
نحاس اصفر او احمر ، او من مادة شبيهة بذلك ومموهة بالفضة ٠٠ اما
المادة المصنوعة منها الاغلفة ، فهى ، بالحق ، من الجلد ! ٠٠٠»

فندت عن زوجتى صيحة وقالت : «ماذا ؟ ٠٠ ليست من فضة ؟! اتقولا
ان الاطر ليست من فضة ؟!

- «اجل ! ٠٠ ليست الاطر من فضة ، لا اذا كانت او انى الطبخ النحاسية
من فضة !!»

فاردفت قائلة : «هكذا ، اذن ، تخلصنا من الحصان لكى نحصل بدلا
منه على «دستة» من النظارات الخضراء فى اطر نحاسية واغلفة من جلد !!
لقد خدع الولد ! لعنه الله من غرأحمق !! يأتينى بمادة نافهة كهذه ٠٠
فلو كانت بحوزتى آلان ، لجعلتها طعاما للنار »

فقلت لها : «انك لعلى خطأ ، يا عزيزتى ، فسنحتفظ بها ، وان كانت
من نحاس احمر ، فهى خير من لا شئ على الاطلاق !!»

ان موسى «المنحوس» قد صدق النصح هذه المرة ٠٠٠ فقد لاحظ ان
رجلا غشاشا قد احتال عليه ، وما اكثر المحتالين الذين يجعلون من
«السوق العامة» مصدر رزق لهم فقد رأى هذا المحتال ولدنا موسى فى
زى ريفى ، فرأى فيه فريسة يسهل عليه افتراسها - تماما كما يبحث
الاسد عن نعجة عاجزة لافتراسها ! ٠٠

لقد باع الحصان - على حد قوله - وراح يمشى فى السوق ، باحثا عن
حصان آخر ليشتره ٠٠٠ وفيما هو كذلك ، اذ برجل تعلقو محياه سيما
الوقار وينم ظاهره عن شخصية جديرة بالتقدير والاحترام ، يقتاده الى
خيمة قريية ، ويقول له ان عنده حصانا يود ان يبيعه ٠٠ ويتابع موسى
كلامه قائلا :

ى

« ٠٠ » وهنا قابلنا رجلاً حسن الهندام ، يطلب قرضاً قدره عشرين ليرة ويستودع - مقابل ذلك - اربعاً وعشرين ديناراً مائة من النظارات ، كنأمين على المبلغ وضماناً له ٠٠ ثم قال ، انه بحاجة ماسة الى المال ، لذلك ، لا يرى غضاضة في التخلص من النظارات ، حتى ولو يثالث قيمتها الاصلية ! ٠٠ عندئذ انضمت الى الرجل الاول - الذى ادعى صداقتى - وهمس في اذنى ان اشترىها ٠٠ وحذرنى من ان اضيع صفقة كهذه ، ٠٠٠ فاستدعيت السيد فلامبورو ، فخدعاه - كما فعلوا معى - وهكذا اتفقنا على شراء هذه النظارات واقتسامها بينى وبينه بالتساوى !»

- ١٢ -

لقد بذلت العائلة قصارى جهدها من اجل تحسين وضعها الاجتماعى ، نوعاً ما ، لكن مساعيها باءت جميعها بالفشل ! ٠٠٠ فحاولت ان افيد من كل اخفاقة لعلى اعلم اولادى واهذب ادراكهم ، فقلت لهم : «لقد رأيتم ايها الاولاد الاحباء ، ما اقل ما افدنا من محاولاتنا الكثيرة فى ان نظهر بمظهر افضل مما نحن عليه الان ٠٠٠ ان الفقراء الذين لا يعيشون الا اهل المال والثراء ، يمتتهم الفقراء امثالهم ويعرضون عنهم ، ويحتقرهم الاغنياء الذين يرافقونهم !»

ثم حكيت لهم قصة «العلاق والقرم» لكى اجعل من مغزاها الادبى اثراً عميقاً فى نفوسهم ٠٠ ولما اشرفت القصة على النهاية ، استلقت انتباهى جدال عنيف بين زوجتى والسيد برتشل ٠٠ فقد كانا يتجادلان حول زيارة لندن التى عزمنا ابنتائى على القيام بها ٠٠ وكاد الحوار يتطور الى نزاع ! فكانت زوجتى تصر اصراراً لا هوادة فيه مؤكدة ان الفوائد التى ستجنيها ابنتيها من هذه الزيارة ستكون كبيرة جداً ٠٠ بينما كان السيد برتشل يحاول اقناعها بالعدول عن ذلك ٠٠٠ اما انا ، فلم انطق برأى ما ، اذا كتفيت بالنظر اليهما عن بعد ! ٠٠ ثم اشتد الحوار وحى وطيسه بينهما ، وبدلاً من ان تحتاج زوجتى وتناقش السيد برتشل استناداً الى العقل والمنطق ، كان صوتها يزداد قوة وارتفاعاً ، وكان لكلامها صدى سىء فى نفوسنا جميعاً ومما قالت له : «اعرف اناساً ينصحون غيرهم لاسباب سرية مكتومة عندهم ، لذلك ، اود لو ان امثال هؤلاء الناس ينصرفون عن بيتى ولا يعودون اليه فى مستقبل الايام ٠٠

فاجابها السيد برتشل بهدوء كاديزيدها اشتعالا : «انك على حق ، يا سيدتى في الاشارة الى الاسرار المكنونة ذلك لانى اكنتم اسرارا لا اريد ان ابوح لك بها ، لانك عاجزة حتى عن الاجابة عن التى » ليست مكتومة «ويظهر ان زيارتى اصبحت مضايقة لكم ، لذلك، استأذنكم الان بالانصراف ، ولربما زرتكم للمرة الاخيرة في المستقبل لادو دعمكم الوداع الاخير قبل هجرتى للبلاد - لانى عازم على مغادرة انكلترا في القريب العاجل !» قال السيد برتشل ذلك ، ثم تناول قلنسوته وخرج ! .. على الرغم من نظرات صوفيا الحزينة وتبكيته له على تسرعه وبذلها كل محاولة لمنعها من الخروج من البيت ...

ولما ذهب السيد برتشل ، نظر كل منا الى الآخر بشئ من الحيرة والارتباك مدة دقائق ، لكن زوجتى اذ ادركت انها كانت السبب في ذلك كله ، حاولت - جاهدة - ان تخفى ندامتها وراء ابتسامة مصطنعة ، وثقة فى النفس ظاهرة ! .. فلم اتمالك نفسى من الانحاء عليها باللائمة على فظاظتها وخشونتها ! .. وصرخت بها :

«اهكذا نعامل الغرباء ؟ ابتهـ المرأة ؟! امثل هذا نقابل لظفهم وكرمهم ؟ ان الالفاظ التى تفوهت بها، هى في نظرى اقصى واعنف واسوأ من كل ما نطقـت به شفتاك حتى الان !!»

فاجابت قائلة : «لماذا ، اذن ، اغضبى واثار في كوا من غيظى وسخطى ؟! انى اعرف الغاية من اعطائه تلك النصيحة لى ! .. ان هدفه واضح تماما ! وما هذا الهدف سوى الحيلولة دون ذهاب ابنتى الى لندن ، لى يتسنى له التمتع بفرصة الاجتماع بها هنا في بيتها ! .. ولكن ، مهما حدث ، فانها سوف تختار رفاقا - اخر من هؤلاء الادنياء ، امثال السيد برتشل !!

فصرخت بها : «ماذا تدعينه ؟! ادعينه «دنيا» ؟ ! قد نكون مخطئين في تقدير اخلاق هذا الرجل ، لانه كان يبدو ، في اغلب الاحيان ، من اكمل من عرفت بين الرجال اخلاقا في حياتى !!» ثم التفت الى صوفيا سائلا :

«اخبرينى ، يا عزيزتى صوفيا ، هل كشف السيد برتشل سرا عن حبه لك او شغفه بك ؟»

فاجابت بسرعة قائلة : «ان حديثه معى ، يا سيدى ، لم يتعدى حدود

الادب والادراك الصحيح ! وكل ما عدى ذلك ، ليس له اى اساس من الصحة ! لكننى اذكر انى سمعته مرة يقول ، انه ما عرف امرأة واحدة قط ، استطاعت ان تجد استحقاقا في رجل يبدو فقيرا معوزا !»

فقلت لابنتى : «هكذا يكون حديث الكسالى والتعساء من العوام ، يسا ابنتى وارجو ان تكونى قد تعلمت كيف تحكمين على مثل هؤلاء الرجال ، وانه لمن الجنون ان تتوقع المرأة السعادة من رجل متهور ، لم يسوس اسباب سعادته كما ينبغى ! ٠٠ اننى ، انا وامك ، نطمح الى مستقبل افضل لك : واننا نتوقع امالا افضل بزواجك ٠٠٠ واذا قدر لك ان تصرفى الشتاء القادم في لندن ، فتمنحين فرص تستطيعين فيها ان تبنى اختيارك لشريك حياتك المقبل ، على اساس من الحكمة والرؤية ٠٠٠»

تضاربت افكار شتى في عقل صوفيافى هذه المناسبة ، لا استطيع لها فهما ! لكننى لم اكن جد مستاء لتخلصنا من من ضيف كنت اخشاه وارهب جانبه :

— ١٣ —

واخيرا ، عقدنا النية على ان تسافر ابنتاى ، اوليفيا وصوفيا ، الى لندن ٠٠ وقد تفضل السيد ثورنهل ووعدنا بمراقبة سلوكهما ومكاتبتهما عن سير حياتهما ٠٠٠

عندئذ رأينا ان من الضرورة اللازمة ان نجهزهما باللبسة الفاخرة ، التى لا غنى عنها لكل من يختلط بين عليه القوم من سيدات ورجال ٠ ولما كانت هذه الملابس ستكلفنا غاليا جدا ، فقد دعوت العائلة الى عقد اجتماع نتدبر فيه اسهل الطرق لجمع المال اللازم ، وليبيع ما يمكن بيعه من مقتنيات البيت التى يمكننا الاستغناء عنها ، لجمع ما نحتاج اليه من الدراهم لهذه الغاية ٠٠٠

لم يلم النقاش طويلا ، فقد رأى ان الحصان الباقي عندنا لم يعد ينفع لجر المحراث بمفرده ٠٠٠ لان تربية حقلنا الصلبة تتطلب ضرورة وجود حصانين لجر المحراث عليها وجعلها صالحة للبدار ٠٠٠ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فان الحصان هذا ، غير لائق للركوب عليه في الطريق العامة ، لانه اعور ٠٠٠ بعين واحدة ٠٠٠ لذلك عزمنا على ان اذهب بنفسى الى السوق وابيع الحصان بالسعر المناسب !»

ومع ان هذه «الصفقة» هي الاولى من نوعها (اذ لم سبق ان قمت بعمل تجارى قط في سننى حياتى) مع ذلك ، لم اشك في قدرتى على القيام بها بنجاح تام ! ٠٠٠ لاننى قد كونت لنفسى خبرة واسعة ورأيا مقبولا فى دائرة معرفتى العامة ! ٠٠ مع ذلك ، لم ابتعدت ، في صباح اليوم التالى ، عدة خطوات عن باب بيتى ، صرخت لى زوجتى واشارت على ، ان «كن حذرا متيقظا !»

عندما اتيت السوق العامة ، عرضت الحصان للبيع ٠٠٠ ممتحنا عود خطواته ، حيناً ، ومختبراً قدرته على السير والركض ، حيناً اخر ! ٠٠ ومر وقت طويل ، دون ان ارى زبوناً واحداً ٠٠٠

واخيراً ، تقدم احدهم وفحص الحصان برهة طويلة ، واذ رآه اعور ، مضى في سبيله دون ان ينبس ! ٠٠ كنت في مكان من السوق مزدحم بعدد جم من الذاهبين والآيين ٠٠٠ فسرعان ما طلع على زبون ثان ، وبعد فحصه للحصان فحصاً دقيقاً ، وجد تورماً في ساقه ، فقال ، بصريخ العبارة ، انه لا يرضى به ولو هدية !! ثم تقدم زبون ثالث ، فلاحظ تضخماً في مفصل القدم ، فلم يعرض اى ثمن فيه ! ٠٠ واخيراً جاءنى زبون رابع وفحص الحصان ، ثم قال : انه مصاب بمرض مزمن بجانب عينه ! ٠٠٠ وخامساً ابدى استغرابه من وجودى في السوق ومعى حصان «اعور» ومريض لا يصلح لشيء الا لذبحه وتوزيع لحمه على الكلاب !!

وهنا ٠٠ بدأت اشعر باحتقار شديد نحو الحيوان المسكين ، حتى كدت احس بالخجل عند اقتراب احده «الزبائن» نحوى ! ٠٠ ومع انى لسم اصدق تماماً كل ما قاله الرجال فى الحصان ، الا انى فكرت في نفسى قائلاً «حيث ان شهوداً عديدين قد اتفقوا على رأى واحد بشأنه . فانه من المحتمل ان يكونوا محقين في رأيهم ! ٠٠»

كنت على هذا الحال من «البؤس» ، عندما رأيت «أخ» لى من الكهنة واحد المعارف القدماء ، قاصداً السوق ، لقضاء حاجة «تتعلق باعماله الخاصة» ! ٠٠٠ اقترب منى ، ثم صافحنى ، وبعد قليل ، طلب الى ان نذهب معا ، الى فندق «النادى الشعبى» نتناول كأساً من النبيذ ٠٠٠ فرضيت بذلك في الحال ، ثم دخلنا فندقاً شعبياً ، فاقتادنى مرافقى (الكاهن) الى غرفة صغيرة خلفية ، رأينا فيها رجلاً شيخاً ، منصباً بكليته على مطالعة كتاب امامه ٠٠

امتلاءت نفسي رهبة واحتراما لدى رؤيتي لهذا الشيخ !! والحق اقول
انه لم يقع نظري - قبل الان - على شخص مهيب ، جدير بالتوقير
والاحترام ، كهذا الشخص كان شعره الاشيب الفضي يغطي جبينه الوقور .
ورغم شيخوخته هذه ، فقد كان يبدو نشيطا ، باشا ، نتيجة اعمال الخير
والاحسان في سنى حياته ، والتمتع باسباب الراحة والهناء !! وعلى كل
حال ، فان وجوده الى جانبنا في الغرفة لم يعق سير حديثي مع الزميل القديم
... وقد جئنا على ذكر تقلبات القدر التي اختبرناها ، وعلى بعض الامور
الكهنوتية ، ثم انتقلنا الى الحديث عن كتابي الاخير ، والموضوع الذي
كتب من اجله ... والرد عليه الخ .

حينئذ ، لفت نظرنا شاب دخل غرفتنا وتكلم الى الشيخ الغريب بكل
وقار واحتشام ، وبصوت عذب رقيق ، قال في ختام كلامه :
«... يؤسفني ان ازعجكم ، يا سيدي ، وانى استطيعكم عذرا عن هذا العمل !»
فقال الشيخ : «العفو يا بنى ! ان البر والاحسان واجب علينا نحو
جميع البشر ... خذ هذا ، وحبذا لو استطعت مساعدتك بمبلغ اكبر ، وانما
خمس ليرات استرلينية قد تخفف عنك وطأة الضيق الذي تكابده ...
تفضل ، خذها ... واهلا وسهلا بك !»

اغرورقت عينا الشاب الحيي بالدموع ، شكرا وامتنانا !... اما
انا ، فلم اكن اقل منه اقرارا بالفضل واعترافا بالجميل ، ووددت لو استطعت
ان اطبع على الرجل الشيخ قبلة التقدير والاحترام ، من شدة ابتهاجي
باحسانه العظيم !!

استأنف الشيخ قراءته وعدنا نحن الى حديثنا ... واذا تذكر زميلي
واجب انجاز عمل له في السوق ، استأذنتني بالانصراف ، واعدت بالعودة
الى سريعا ، - ثم اضاف على ذلك بقوله انه كان دائما شديد الرغبة
في الاجتماع بالسيد «برموز» مدة طويلة !!

لما وقع ذكر اسمي على سمع السيد الشيخ ، رفع هذا نظره الى
ورمقني باهتمام بالغ برهة من الزمن ، ولما مضى زميلي في سبيله ، سألني
بكل تأدب واحترام ، ان كاذمت ثمت صلة تربطني بالسيد برموز «العظيم»
الشجاع ، وحامي حمى الكنيسة ، والذي يؤيد الرأي القائل ، ان رجل الدين
ينبغي ان لا يتزوج اكثر من امرأة واحدة فقط ؟!

لم يحس قلبي بسعادة اصدق واحق ، في ماضى حياته ، احساسه
بها في اللحظة التي سمع بها هذه العبارة !! وان سروره بلقائي ، بدا .

فعلا ، حقيقيا خالصا ! ... حينئذ اجبته : «انه ليسعدني ، يا سيدي ، ان اتقبل الثناء من رجل صالح مثلك ! .. وانك لتشهد الدكتور بمرور الذي سررت بـ ان تلقه «بالرجل العظيم» مائلا امامك !»

فصرخ الشيخ قائلا : «كنت فضوليا جدا ، يا سيدي ، لرغبتي في التيقن من كونك «السيد بمرور» حقا ! والان ارجو التكرم بقبول اعتذاري عن فضولي هذا !»

فامسكت يده ، قائلا «انك ابعد ما تكون عن الاساءة الى ، يا سيدي ، وارجو ان تتفضل بقبول صداقتي !»

فاجاب ويده ، ما زالت في يدي ، . «اني اتقبل صداقتك شاكرا ، يا سيدي ، كيف لا وانت الدعامة العظمى لهذا الدين المكين ؟؟ واني لا اري ...

هنا ، قطعت عليه الكلام ، لانسى وان كنت استطيع ، بوصفي «كاتباً» ان اتقبل المداينة والمديح ، الا ان آداب الحشمة والتواضع ، لا تسمح لي باكثر مما سمحت به انا لنفسي ... على كل حال ، فقد نتج عن هذه المقابلة القصيرة ، صداقة ، اسرع بكثير من اى صداقة قامت بين العشاق في الروايات والقصص الخيالية !

تحدثنا في مواضيع شتى ... واشرت في سياق حديثي الى ان الناس قد فقدوا اهتمامهم بالامور الدينية ، ثم تكلم هو عن خلق العالم ، مستشهدا بآراء الكتاب اللاتين والاعريق القدماء ، لدعم آراءه بهذا الخصوص ! .. ثم خاطبني قائلا :

«انك تتحدث عن خلق العالم ، يا سيدي ، اليس كذلك ؟ .. ان العالم قد شاخ ! .. اما «كيفية» خلقه ، فقد بقي سرا غامضا ، استعصى اكثناه حقيقته على الفلاسفة في كل عصور جيل !!»

استمر هكذا في حديثه عن العالم ، لكنه لم يشر بالتدقيق الى الموضوع الذي كنت اتكلم فيه ... على ان ما قاله بهذا الصدد ، كان برهانيا كافيا على كونه علما ، - بل عالما متبحرا في العلم والمعرفة ، مما زاد في احترامي وتقديري له ! ..

فعدت النية على امتحان معرفته في ميدان الجدل ، لكنه كان من الوداعة ودمائه الخلق ، بحيث ابت عليه نفسه محاولة الانتصار على في هذا المضمار ! ! فكان ، كلما ذكرت مسألة تحتاج الى الاجابة عليها ، يبتسم ثم

يهز رأسه ولا يقول شيئا على الإطلاق! مما جعلنى أدرك ، ادراكا تاما ،
مقدرته على الكلام كثيرا ، اذا ما رأى داعيا لذلك ! ٠٠ وبطريقة لا شعورية
تحول مجرى الحديث ، من المواضيع الدينية الى الكلام عن الغاية التى من
اجلها جئنا - انا وهو - الى السوق ، نعم ، تحول مجرى الحديث دون ان
الاحظ ذلك ، فعلا ! فاخبرته ان غاييتى من ذلك هى بيع حصان لى ٠٠ والغريب
فى الامر - بل لحسن الحظ - لم يأت هو الى السوق الا ليبتاع حصانا !
وفى الحال قدمت له الحصان واتفقنا على الثمن !

وما بقى عليه الان ، سوى دفع القيمة ٠٠٠ فمد يده الى جيب معطفه ،
واخرج ورقة مالية من فئة الثلاثين ليرة استرلينية ، وطلب الى تحويلها الى
ذهب ٠٠ ولما كنت عاجزا عن القيام بذلك ، استدعى خادمه ، فجاء فسى
الحال رجل انيق الملبس ، حسن الھندام ، فصرخ به سيده قائلا :

«خذ هذه الورقة المالية ، يا ابراهيم ، وحولها ذهباً ؟ يمكنك
تحويلها في محل جارنا ، السيد جاكسون ، او في اى مكان اخر ! ٠٠٠»
بينما كان الخادم غائبا ، الهانى بحديث شجى ، عن ندرة العملة
الفضية فى الاسواق ، فاجبته - أسفا - عن ندرة وجود الذهب ، ايضا ! ٠٠
وفى الوقت الذى عاد فيه ابراهيم ، كنا قد اتفقنا فى الرأى ، على انه
لم يمر وقت على البلاد ، تعذر فيه الحصول على المال ، كما هو الحال
فى الوقت الحاضر ! ٠٠

عاد ابراهيم ليعلمنا بانه سأل كل صيرفى فى السوق فلم يجد من يستطيع
تبديل الورقة المالية ذهباً ! مع انه عرض ، لقاء ذلك ، نصف ريسال
(ثلثان ونصف) ! ٠٠٠ فكانت خيبة امل مريره بالنسبة لنا جميعا !
لكن الشيخ سألنى - بعد برهة من التفكير قصيرة - فيما اذا كانت لى
معرفة بشخص اسمه «سام فلامبورو» يقيم فى مكان ما من الريف ، الذى اقيم
فيه انا ؟! فاجبته بان الرجل يقطن فى بيت قريب جدا لبيتى ، فقال الشيخ
«اذا كان الامر كذلك ، اعتقد باننا نستطيع اتمام الصفقة ٠٠٠ وسأعطيك
«سحب» (حوالة مالية) على السيد فلامبورو ، وحالما تبرز له ورقتى
يعطيك المبلغ المتفق عليه ٠٠٠ واسمح لى ان اقول لك ، ان السيد فلامبورو
رجل لا يقل طيبة عن اى رجل فى دائرة قطرها خمسة اميال ! ٠٠ وهو صديقى
منذ سنوات عدة !!»

ان سحب حوالة مالية على جارى و صديقى ، هى بمثابة مال مضمون

الجيبى ، لانى كنت مقتنعا بقدرته على الدفع عندئذ ، كتب السيد جنكيسون الحوالة وذيلها بتوقيعه ، ثم تسلم الحصان وذهب به هو وخادمه ابراهيم وكل منهما راض عن نفسه تمام الرضى .!

وبعد فترة قصيرة من التأمل والتفكير اخذت ادرك الخطأ الذى ارتكبته باستلامى حوالة مالية من شخص غريب لا اعرفه ! . . . فعزمت ، عن ترو وحذر ان الحق بالمشتري واستعيد منه الحصان . . . لكنى لم اعثر على احد ، وقد فات الوقت ! واسقط في يدي ! عندئذ ييمت وجهى شطر منزلى . . . عازما على تبديل الحوالة بالدرهم ، في بيت صديقى السيد فلامبورو باسرع وقت ممكن !! وعندوصولى ، رأيتُه واقفا عند باب بيته يدخلن البية ! فاطلعت على الحوالة الصغيرة المسحوبة عليه . . . فقراءها مرة ومرتين . . . فقلت له : « اظن انك تستطيع ان تقرأ الاسم : - افرام جنكيسون ؟ » فقال : « نعم ! . . ان الاسم واضح تماما . . . وانى اعرف هذا « السيد » ! اعرفه جيدا . . . اكبر وغد محتا ل على وجه الارض ! وهو اكبر من عرف بالغش والخداع ! انه الرجل المخاتل نفسه الذى بأعنا النظارات ! . . . الم بيد لك رجلا هلا بالتجلة والاحترام ، ذو شعر أشيب ، تاركا جيوب سترته بدون « اغطية » ؟؟ او لم يحدثك طويلا عن رجال العلم والادب الاغريق ، وعن خلق العالم ؟؟

عندئذ ، افلتت من بين شفتى انة كان لها وقع شديد على اذن صديقى ، فرفع عينيه ونظر الى نظرة عطف واشفاق ، ثم اردف : « . . نعم ، لا يعرف من علوم الدنيا سوى ذلك « المقطع » الذى حدثك به ! ويتحدث به حيثما وجد نفسه بصحبة رجل عالم ! . . . لكنى اعرف هذا الوغد ، ولا بد من ان يأتى يوم القى فيه القبض عليه !! »

مع ان الخجل من نفسى كان قد غمرنى بما فيه الكفاية ، الا ان « الجهاد الاكبر » كان في مواجهة زوجتى وابنتى !! وكما يخشى الولد الشرير العودة الى المدرسة خوفا من رؤية وجه معلمه الغضوب . . . هكذا كنت اخشى العودة الى البيت !!

ولكن ، واسفاه ؟ - لما دخلت البيت وجدت العائلة غير مستعدة للدخول في « معركة » ضدى ! فقد كانت زوجتى وابنتى تذرفان الدموع سخية ، لان السيد ثورنهل قد جاءهن ذلك اليوم ، واخبرهن ان مشروع رحلة الابتان الى لندن قد قضى عليه نهائيا !! فقد ترامى الى مسامع السيدتين ، اخبار

سيئة عنا من شخص حقود ، ضاغن ، خبيث ، لا نعرفه ! - او يخيل اليها
اننا لا نعرفه !

وغادرت السيدتين الريف ، تواء الى لندن في اليوم نفسه : ولم
يتمكن السيد ثورنهل من الاطلاع على نص تلك الرسالة التي ارسلت
الى السيدتين ولا معرفة مصدر الخبر او معرفة كاتبها المؤذ الخبيث ، غير
انه اكد استمرار صداقته للعائلة مع حمايته لها ، بغض النظر عن الاخبار
مهما كانت نصوصها واي كان الشخص الذى اشاعها ! مع ذلك ، فقد تحملت
العائلة خبر فشلي بهدوء عظيم واستسلام تام ، محتججا وراء انكسافها العظيم !!
ولكن الامر الذى اقلق بالنا ، هو اهتمامنا وتفكيرنا في من يكون ذلك
الدني السافل الذى تقول في عائلة . هي ابعد ما تكون عن الاذية والشر
وأوضع بكثير من ان تثير غيرة الناس منها وحسد هم لها ، وارفح عن الاساءة
من ان تخلق الاشمزاز والكرامية بين الناس !!

- ١٤ -

عبثا قضينا ذلك الليل وقسمنا من نهار اليوم التالى في محاولتنا معرفة
خصومنا ! حتى انك لا تجد عائلة واحدة ، من جيراننا الكثيرين ، قد
سلمت من التعرض لظنوننا وشكوكنا ! وكان لكل منا حججه التى استندت
عليها آراؤه . . . وبينما كانت افكارنا نهبا للريب والظنون ، جاء احد
ولدينا الصغيرين ، الذين كانا يلعبان خارجا ، حاملا حقيبة رسائل ،
قال انه وجدها على العشب . . . وقد ادر كنا حالا ، انها تخص السيد برتشل
. . . لاننا سبق ورأيناها معه ايام كان يعودنا في منزلنا . . . ولما فتحناها ،
وجدنا فيها بعض الملاحظات في مواضيع مختلفة وتواريخ بعض المواعيد المرتبط
بها مع بعض الاشخاص . . . واسماء اشخاص كان قد وعدهم بزيارتهم ،
وبعض الارتباطات والمواعيد المختلفة لكن الشئ الذى استرعى انتباهى
بصورة خاصة ، رسالة مختومة كتب عليها ما يلى :

«نسخة عن الرسالة التى سترسل الى السيدتين المقيمتان فى قصر
«ثورنهل» وفي الحال ، خطر لنا ان السيد برتشل هو هو ذلك المخبر السافل !
فتشاورنا فيما اذا كان محتما علينا فاض الرسالة ، مع انها تخص آخر ؟
فاستحال تشاورنا الى جدال حار عنيف ! وقد عارضت انا مسألة
فضها ، لكن صوفيا (التي قالت ان السيد برتشل هو آخر من يرتكب عملا

حينئذ كهذا ، بين الرجال) الحت على فضها وتلاوتها ، وهكذا اثني الجميع على اقتراح صوفيا ، و ، نزولا عند طلبهم ، تلوت عليهم الرسالة ، وقد ورد فيها ما يلي :

سيدتي

« ان حامل الرسالة هذه ورسولي اليكما ، سيكفيكما مؤونة السؤال عن الشخص الذي تأتيكما منه فكاتبها صديق البرائة والسذاجة .. وهو على اهبة الدفاع عنهما لئلا تصابا بأذى او مكروه ! ..

« لقد بلغني انكما عازمتان على استصحاب فتاتين ، اعرفهما حسب المعرفة ، الى لندن ، مدعيتين استخدماهما « كمراقبتين » لهذا الغرض ! .. اذى لا ارضى عن رؤية السذاجة مخدوعة ! ولا للفضيلة ان تلوث ! .. لذلك ، ارى ان عملا كهذا سيؤدي حتما ، الى نتائج جد وخيمة والى عواقب ليس لكما بها قبل ! ..

« ان عقاب مثل هذا العمل ، سيكون غاية في القسوة والعنف لسم اعتد معاملة سيدات شائعات بشدة اوقسوة وما كنت لانتهركما الان ، لو لم تهدفا الى ارتكاب جريمة ! .. فهذا تحذير من صديق .. فتأملا مليا بالعواقب التي ستنتج عن ادخال العار الى بيت هادى ساكن ، تسكنه السمعة الطيبة ، والبرائة الطاهرة .. » !!

لقد انتهت شكوكنا عند هذا الحد ! فزوجتى لم تطلق صبيرا على تلاوة الرسالة حتى نهايتها .. ولم تستطع كبج جماح غضبها فصرخت صرخات النعمة والغضب على كاتبها ، ولم تكن اوليفيا اقل من امها عنفا وفورانا ، اما صوفيا ، فقد تملكها الدهشة والحيرة ، ازاء هذه الدناءة اما انا ، فقد بدا لي هذا التصرف من احط مثل نكران الجميل وجحود المعروف صادفتها في حياتي ! ..

لم استطع الى تبين ذلك سبيلا .. ولا الى شرحه تأويلا !! الا اذا كان ذلك ناشئا عن رغبته في مقابلة ابنتى صوفيا في اكثر الاحيان ، او ربما علل نفسه ان في احتجازها فى الريف ، تسنح له فرص كثيرة تمكنه من الاجتماع بها ؟!

جلسنا نفكر في تدبير المكاييد للانتقام ! وفيما نحن كذلك ، واذ بابننا الصغير ، يأتى مهرولا ، ويقول ان السيد برتشل قادم الينا وهو يقترب من الجانب الاخر من الحقل ! .. نظرنا صوبه ، فرأيناه يدنو منا ،

٠٠ ثم دخل البيت وجر كرسيه وجلس عليه ٠٠٠

فقلت له : « انه ليوم جميل ، ياسيد برتشيل !! »

فرد قائلاً : « انه جميل جدا ياسادكتور مع ذلك ، فاننى اترقب هطول مطر ! »

عندئذ ، ثبت نظرى فيه وسألته : « تعرف هذه ، يا سيدى ؟ اتعرف هذه الحقيقية ؟ »

فاجاب : « نعم ، بكل تأكيد ، انها لى ٠٠٠ وقد سرنى انك عثرت عليها !! »

فسألته بحدّة : « وهل لك معرفة بهذه الرسالة ؟ انظر الى جيّد ! انك معرفة بها ؟ »

فاجاب : « هذه الرسالة ؟ اجل ، اعرفها ! ٠٠ وانا الذى كتبتها ! »

فقلت : « وكيف تتجاسر على ذلك ؟ بل كيف عن لك ان تكتب رسالة كهذه ، لا تنطق الا بالجحود ونكران الجميل ؟ »

فاجابنى في منتهى الوقاحة ، قائلاً : « وكيف خطر لك ، بل كيف تجرات على فض رسالة ليست لك ؟ لا تعلم ان عملاً كهذا يقتادك الى حبل المشنقة ؟ وما على الا ان اقسام امام القاضى انك مجرم في كسر قفل حقيبتى هذه ، حتى يحكم عليك بالشنق ، كما شنق كثيرون ، قبلك ، من اللصوص البائسين التعمساء !! »

ان هذا اللون من الوقاحة قد اثار كوامن نفسى ، بحيث كدت افقء معها قوتى على ضبط مشاعرى ، فصرخت به قائلاً :

« اغرب عن وجهى ، ايها الشقى الكنود !! ولا تدعننى اراك ثانية ! »

قلت هذا ، ثم قدفته بالحقيقة ، فتناولها بابتسامة واقفلها بكل هدوء ، ومضى ٠٠٠ بعد ان تركنا حيارى مندهشين ازاء ثقته بنفسه ورباطة جأشه !!

لقد ثار ثائر زوجتى ، وتملكها الغيظ الشديد ، خصوصاً لانه لم يكن ثمت شىء يستطيع ان يسخطه او ان يجعله يخجل من وقاحته ودنائة نفسه !

فقلت لها ، محاولاً تهدئة حميا تلك الانفعالات التى ثارت الى درجة قصوى بيننا : « يجب ان لا يأخذنا العجب ، يا عزيزتى ، من ان الرجال الاشراق

يحتاجون الى الخجل والحياء ، انهم يخجلون من الفضيلة ، فتنط ، ومن الرذيلة لا يستحون ، بل بها يفتخرون ويعتززون ! .. تحمر وجوههم خجلا اذا اكتشف الناس انهم يصنعون الخير ، لكنهم يتباهون بفعل الشر .. ان الشر والرذيلة في نظرهم موضوع فخر واعتزاز !! »

- ١٥ -

لا ريب ، في ان صوفيا قد حزنتم لغياب السيد برتشل ، غير ان زيارات السيد ثورنهل لنا ، قد تكررت بعد رحيله واصبحت اطول من ذي قبل ، مما ادخل السرور الى قلوب كافة افراد العائلة ! .. ان خطته التي رسمها لاصطحاب ابنتي الى لندن قد باءت بالفشل .. لكن فشل خطته لم يشنه عن ان ينتهز كل فرصة تسنح له لان يمدحها بكل اسباب اللهو الممكنة .. كان يؤم بيتنا صباح كل يوم ، ويجمع الى العائلة - اثناء انشغالي مع موسى في العمل خارجا - فيسليهم بحديثه الممتع عن لندن ووصفه لها ، مرددا على مسامعهم اخر ما سمعه من لطيف الملح وظريف الفكاهات !

يجب الاعتراف ، بان زوجتي قد استخدمت الف طريقة من طرق المكر والدهاء ، لتوقعه في « الشرك » افتننت في اظهار مميزات ابنتها (اوليفيا) وجمالها ومهارتها اعظم جدا مما هي عليه حقيقة ! فاذا كانت الكعكات ، وقت تناول الشاي مخبوزة جيدا ، قالت ، ان اوليفيا هي التي خبزتها ! .. واذا كان النبيذ طعمه لذيذا ، قالت ان اوليفيا هي التي صنعتها ! .. واذا كانت حلواء الغداء شهية ، ادعت ان اوليفيا هي التي مزجت الطحين والسكر والبيض والفاكهة فكانت هذه الحلواء الطيبة ! .. وكانت تقول للسيد ثورنهل ، انه يكاد يكون هو واوليفيا في حجم واحد ، او تأمرهما بالوقوف جنباً الى جنب لكي ترى من يكون اطول قامة ! .. كانت زوجتي تعتقد بان هذه الحيل تنطوي على كثير من الدهاء ، بحيث يتعذر على الناس معرفة الغاية منها ! .. ومع ذلك ، فقد ادرك الجميع حيلها ، تمام الادراك ، وكان السيد الفاضل (ثورنهل) يقدم كل يوم برهانا جديدا على هيامه بها ، لكن «هيامه» هذا ، لم يصل به الى درجة طلب يد اوليفيا والتزوج بها ! .. ولكن ما مر طويلا وقت حتى جرى حادث ، مصادفه ، مما بدد كل شك في ان السيد ثورنهل ، قد صمم - فعلا - على اعتبار نفسه احد افراد عائلتنا .. وهاكم ما حدث :

خرجت زوجتي لزيارة عائلة جارنا السيد (فلامبورو) فعرفت منها ، ان هنالك فنانا متجولا في الريف ، قد رسم صور افرادها ، باجرة خمسة عشر شلن للرأس ! (اي للفرد الواحد) .

والجدير بالذكر ، ان هذه العائلة كانت تنافس عائلتنا في مسألتى الذوق والفن ، فكانت تحاول - على الدوام - ان تظهر بمظهر اسمي وارفع مقامنا منا ، وكنا نحن ننافسها ونحاول ان نظهر بمظهر افضل ... ففى اخذ تلك الصور ، سبقتنا عائلة فلامبورو ، «شوط واحد الى الامام» (كما يسبق الجيش جيشا اخر بزحفه - ليلا - الى الامام !) . ورغم اعتراضاتي - وقد تكلمت واعتضت كثيرا ! فقد تقرر ان ترسم لنا صور ايضا ! .. والان ، وقد اتفقت مع الرسام بهذا الخصوص ، وكانت مهمتنا التالية اظهار تفوقنا في الذوق ، بترتيب الاشخاص وتناسبهم بعضهم الى بعض ..

كانت عائلة جارنا السيد فلامبورو ، مؤلفة من سبعة اشخاص ، صوروا جميعا مع سبع برتقالات - اى كل منهم قد صور وهو ممسك ببرتقالة بيده (او بيدها) لكن هذا لم يكن دليلا على الذوق السليم او التنوع ، ولا برهانا على البراعة او التناسق ... وبعد اخذ ورد طويلين ، اتفقنا على ان تؤخذ لنا صورة واحدة تذكارية ، كبيرة ، تجمع الكل معا في اطار واحد . .. فيكون بذلك ، اخص نسيبا ، ولان كل صورة يجب ان توضع ضمن اطار خشبي جميل ، سنحتاج ، طبقا لذلك الى سبع اطر ... اما اذا اخذت لنا جميعا ، صورة واحدة كبيرة ، فلن نحتاج الا الى اطار واحد كبير ..

كانت زوجتي ترغب في ان تظهر بمظهر فينوس (١) على ان تبدو البقية مرتدية البسة الشخصيات الاخرى ، المشهورة في الادب الاغريقى ... وقد سر السيد ثورنهل بذوقنا الفنى كثيرا حتى انه طلب هو ، ايضا ، ان يصور مع باقى الاسرة ، في شخص الاسكندر الكبير ... وقد اعتبرنا تصرفه هذا ، دليلا على رغبته في الدخول معنا الى «حلقة» العائلة الواحدة ، فلم يسعنا ، اذ ذاك ، الا قبول طلبه ..

شرع الرسام في عمله ، وفي اقل من اربعة ايام كان كل شئ قد انجز ... وكان الجميع راضين عن عمله كسل الرضى .. ولكن فكرا طارئا ملانا خوفا ويأسا ، فاستبد بنا الفرع وتملكتنا الحيرة . ذلك ان طول الصورة

(١) الهة الجمال عند الاغريق

وعرضها ، كانا اكبر من ان نجسـدلها مكانا فى البيت نشيتها عليه . بل كانت من الضخامة بحيث لم تنسـبع «فتحة» الباب لادخالها منه . . . فتركناها مسندة الى جدار فى الحى ، حتى صارت مـشـارا لمزاح سكان الحى وضحكهم . . . فشبهها احدهم ، بقارب « روبنسون كروزو (١) » اذ كان هذا القارب . . . اكبر من ان يستطاع نقله . . .

مع ان الصورة قد اثارت مـزاح بعض الناس وضحكهم ، فانها اوحى الى البعض الاخر بالحقد ، وايقظت كوامن الخبث فيهم . . . ذلك لان حقيقة وجود صورة السيد ثورنهل معنـى فى لوحة واحدة الى جانب صورنا . . . قد اثارت حسد الناس وغيرتهم . . . ثم راحت الهمسات تنتقل من شفة الى شفة . . . وعندما قصدنا بعض الاصدقاء لزيارتنا ، اخبرونا بكل ما كان يتشـدق به الخصوم ويتقولونه ضدنا . . .

لذلك ، عقدنا اجتماعا عائليا للتشاور فيما يجب علينا عمله ضد خصومنا للحد من مكرهم وخبثهم . . . فعقدنا النية على ان تتولى زوجتى السعى الى معرفة ما اذا كان السيد ثورنهل . . . قد صمم - فعلا - على الزواج مـن ابنتى اوليفيا : ذلك بادعائها استشارته فى قضية اختيار زوج لها . . . فان لم يستـمـيله هذا الى الافصاح عن رغبته فى مصاهرتنا ، فما عليها - اذ ذاك - الا اخافته بمنافس له . . . لم اكـن لارضى عن ذلك ، لو لم تعدنى اوليفيا بالزواج من المنافس المقدم لها ، ان لم يمانع ذلك السيد ثورنهل بزواجه هو بها . . .

وفى المرة التالية ، عندما زارنا السيد ثورنهل ، تحوطت ابنتى نفسيهما ، حيلة تامة ، فلم تظهر اوقتئذ ، لكى تعطيا امهما فرصة لتنفيذ خطتها . . . والحقيقة ، انهما انسحبتا الى الغرفة التالية لغرفتنا ، لكى يتسنى لهما الاستماع - جلسة - الى الحديث بكامله . . .

بعد ان تحدثت زوجتى قليلا عن زواج الانسة فلامبورو بالسيد سيانكر تحولت الى الحديث عن ابنتها ، طبقا لخطتها المرسومة : فقالت : والان ، ايها السيد ثورنهل ، هل تستطيع ان تدلنى على زوج لائق بابنتى اوليفيا؟ فاجابها قائلا : «سيدتى ، لـو فـوز لى ان اختار ، اخترت لها الا الرجل المقتدر الماهر ، الكامل الثقافة والتهذيب . . . وغير هذه مـن الصفات الحميدة . . . التى تجعل من الزوجة ملاكا سعيدا !!»

(١) اسم قصة للكاتب الانكليزى الكبير «دانيال ديفو» (١٦٦٠ - ١٧٣١)

فاجابت زوجته : « نعم ، ولكن هل تعرف رجلا هذه صفاته ! »

فاجاب : « كلا ، ياسيدتى ، انه من المستحيل ان نعرف شخصا يستحق ان يكون زوجها لها ! انها كنز ، اعظم جدا من ان يكون في حيازة رجل ما انها آلهة ! انها ملاك !

- آه ايها السيد ثورنهل . انك لتمالق ابنتى فقط . والحقيقة اننا نفكر بتزويجها بالمزارع ويليامز ، رجل امين ، سليم الجسم ، يركن اليه في الملمات ، قادر على ان يتعاش واياها بالرضى والهناء ، ولقد طلب يدها مرارا عديدة (وكانت على حق) . انه ليسرنى رضاؤك واستحسانك لاختيارنا . . . فهل توافق على ذلك . ؟؟

- كيف اوافق على مثل هذا الاختيار يا سيدتى ؟؟ كيف ؟ لا . لا . ابدا . ماذا ؟ اتضحين بجمال ابنتك وذوقها وصلاحها من اجل مخلوق فاقد الحس لا يقدر هذه النعمة والبركة حـق قدرهما ؟؟ عفوا ، انى لا استطيع الموافقة على عمل جائر كهذا . لاسباب لا ارى موجبا لذكرها !!

فصرخت دبورة : « آلدك اسباب حقا ؟ ياسيدى ؟! انه ليسرنى جدا ان اعرف هذه الاسباب ؟ »

فاجابها : « عفوا ، ياسيدتى . انها في عمق اعماق صدرى . . . لذلك يتعذر على الغير اكتشافها . » حينئذ وضع يده على صدره وقال :

« وستبقى مدفونة فيه ، هنا ! »

بعد ذهاب السيد ثورنهل عنا ، عقدنا اجتماعا عائليا . للتشاور فلم نتوصل الى معرفة ما يجب عمله ازاء هذه الاقوال المعسولة ، الناعمة . . . اما اوليفيا ، فقد اعتبرت كلماته ادلة شديدة على شغفه وعظيم هيامه بها ، اما انا فلم اكن كثير الامـل اذ كانت في نظرى تحمل عواطف الحب اكثر من فكرة الزواج . . . لذلك ، عقدنا العزم على العمل على تحقيق مشروع المزارع ويليامز . . .

- ١٦ -

ان حب السيد ويليامز لاوليفيا ، قد اضحى في حكم الزوال ، لانه لم ينل منا ، في الايام الاخيرة ، الا تشجيعا ضعيفا جدا . . . لكنه لم يكن يحتاج الا

- ٦١ -

الى تشجيع قليل ، لبعثه من جديد ، او احيائه ثانية ، مع ما عرف عنه من قوة وحيوية ..

بعد مضي ليلة او ليلتين ، تلاقى السيدين ثورنهل وويليامز في بيتنا ، وكان الواحد منهما ينظر الى الاخر بعين الغضب والسخط الشديدين وتظاهرت اوليفيا - حينئذ - بالميل الى الحبيب الجديد بكل عواطفها وجوارحها . فبدأ السيد ثورنهل كسير النفس ، مكتئبا ازاء هذا التفاضل وبوجه ذليل ونظرات حزينة ، استأذنا بالانصراف ومضى لسبيله ..

ولكن مهما تحمل السيد ثورنهل من الشقاء ، فقد كان من السهل ان نلاحظ ان اوليفيا كانت تكابد آلاما وهموما اعظم .. فكانت كلما خلصت من مقابلة حبيبها ، تخلو الى نفسها للتقاسى في وحشتها وخلوتها ما شاء الله لها من الحزن والالام ..

وجدتها ذات مساء في مثل هذه الحالة ، فقلت لها : « ترين ، الان يا بنيتى ، ان ثقك بحب السيد ثورنهل لم تكن سوى حلم من الاحلام ، بدليل سماحه لرجل آخر بان يكون منافس له .. وهو يعلم علم اليقين ، انه باستطاعته ان يحتفظ بك لنفسه بمجرد اعلان صريح عن رغبته في التزوج بك .. »

- « نعم ، يا والدى ، ولكن لديه اسبابه الخاصة لهذا التأخر .. وانا واثقة من ذلك .. ان الاخلاص البادى على نظراته وكلماته ، يحملانى على الاقتناع باحترامه الحقيقي لى .. »

فقلت لها : « اوليفيا ، حبيبتى .. مهما طلبت من الوقت لحمل حبيبك المعجب بك على البوح بخفايا صدره وكشف مكنونات قلبه ، فسيعطى لك .. ولكن يجب على فى النهاية ان اجيب السيد ويليامز على طلبه ، مكافأة له على امانته وولائه .. عىنى اليوم ، يا بنيتى ، وليكن هذا اليوم بعيدا حسيما ترين موافقا .. وفي غضون ذلك ، يجب ان تخبرى السيد ثورنهل اليوم الذى عزمتم ان اسلمك فيه لرجل اخر .. »

فجددت وعدها - للمرة الثانية - بان تقبل التزوج بالسيد ويليامز اذا خيب آمالها السيد ثورنهل .. ولما اتيج لنا الاجتماع معا ، فى فرصة اخرى تعين ذلك اليوم نفسه من الشهر القادم بحضور السيد ثورنهل للاحتفال بعقد قران اوليفيا على منافسه السيد ويليامز

مر اسبوع واحد ، لكن السيد ثورنهل لم يبذل فيه اى مسعى ليحول دون :

زواجها المرتقب .. و مر اسبوع ثان تكررت فيه زيارته لنا ، لكنه لم يصرح بشيء على الاطلاق .. وفى الاسبوع الثالث ، انقطعت عنا زيارته بالكلية .. اما ابنتى اوليفيا ، فلم يبد عليها اى ملل او ضجر ، بل استسلمت لاحكام القضاء والقدر .

كان ذلك ليلا .. وقبل موعد عقد قران ابنتى اوليفيا باربعة ايام ، عندما اجتمع افراد عائلتى حول النار الساهرة الخلابه ، المتأججة في الموقد الاسر الجميل ، يسردون قصص السنين الخوالى ، ويرسمون الخطط والمشاريع للمستقبل .. فاحسست - عندئذ - بانى اسعد من ملك . فالتفت الى زوجتى وقلت لها : « دبورة ، يا حياتى . ما اكثر ما ينبغى علينا ان نحمد الله سبحانه وتعالى على ما اسبغه علينا من صحة وسلام وراحة وهناء .. انى اشعر الان ، بانى اسعد حظا من اعظم سلطان على وجه الارض اننا نقترب رويدا رويدا نحو الشيخوخة ، ومن المرجح ان يكون مساء حياتنا هنيئا ، سعيدا ، كما كان صباحها .. ان صفحة تاريخ عائلتنا ناصعة البياض ، نقيه ، ولا نرى فيها لطخة واحدة سوداء نعاى عليها او تشعربنا بالخل منها .. لقد انحدرنا من اجدادلا يعرف الخزى اليهم سبيلا ولا يستطيع ان يجد في نفوسهم مكانا كما اننا سنترك بعدنا جيلا من ابناء صالحين ، لا عيب فيهم ولا شئار .. هلموا ننشد اغنية ، يستطيع ترديدها الجميع معا . - ولكن اين الحبيبة اوليفيا ؟ ان صوتها الملائكى لاعذب من اصوات جميع المغنين والمغنيات !!

وفيما انا اتكلم ، دخل ذلك راكضا وهو يصرخ : « بابا ، بابا ، انهىنا ذهبت عنا . ان اوليفيا قد تركتنا وذهبت . الى الابد !

- « ذهبت ابنتى ! »

- « نعم . ذهبت مع رجلين في عربة يجرها حصانان .. وقد قبلها احدهما وقال انه مستعد للموت من اجلها . لقد صرخت كثيرا وارادت العودة اليها ، ولكنه عاد واقنعها ثانياه بالهرب معه .. فدخلت العربيه ، قائلة . يا الهى . ماذا سيعمل والذى المسكين عندما يعرف انه قد قضى على القضاء الاخير .. ؟ »

فصرخت : « ليسقط عليه غضب السماء الابدى .. ياله من سارق ولص هاتوا مسدساتى فسألحق به .. يا له من وغد لثيم !! »

عندئذ قالت دبورة : « اى زوجى العزيز ، يجب ان تتعلم الصبر ، والا

فاعلم ان ابنتنا قد خدعتنا خداع الوعدة اللثيمة !!»

وقال ابني بحدة : «حقا ، ياسيدي ان القوة والغضب لا يجديان شيئا .
ان غيظك لشديد جدا . . والشدة لا تجدى فتىلا . . ان تصرفك هذا
ليزيد في آلام امي ، ثم ، فضلا عن ذلك لا يليق بشخصك المحترم ان
تلعن ، هكذا ، اكبر اعدائك .» !!

- « لم لعنه ، ايها الولد . . اصحيح اني لعنته ؟ !»

- بلى ، لعنته ياسيدي !!

- « اذن ، فليسامحه الله واياي ان كنت قد فعلت ذلك . . ان الذي
اثار غضبي الشديد هذا ، ليس نافها ، كما تظن ، كما ان عيني اللتين
لم تدمعا منذ سنوات عديدة ، لا يسيل دمعهما الان ، لان همى طفيف وكرى
قليل . . آه يا بني . كم يعز علي اختطاف ابنتي وحيبتي . الا ليست
الخزى يضع يده . . اغفر لي يارب . ! ماذا كنت سأقول ؟ ! كم كانت طيبة
هذه الفتاة . . وحتى هذه اللحظة المشثومة كانت تبذل قصارى جهدها
في سبيل اسعادنا ! ولكن ، قل لي يا بني ، هل رائيتهما منطلقين معا ؟
او لعله اكرهها على الهروب معه ؟ فان كانت قد فرض عليها ذلك قسرا ،
فهي لا شك ، طاهرة الذيل . بريئة »

فاجاب ابني قائلا : « آه كلا يا ابتي ، ما كان منه الا ان قبلها
ودعاها ملاكه ، ثم بكت كثيرا واستندت الى ذراعه ، ثم دخلت العربية وانطلقت
بهم سريعا !»

حينئذ صرخت زوجتي بصوت تخنقه العبرات : « يالها من مخلوقة
كنود ! تهجر والديها دون ان ترى منا ما يغضبها او يستفزها . - انها
ستنزل شيبتك الى الهاوية . ولن البث طويلا حتى الحق بك !!»

وهكذا صرفنا ليلتنا ننهر ابنتنا حيننا ، ونعيرها حيننا آخر ، ولم نلعن
ذلك المخاتل الوغد الذي خانها وغدر بها !

واخيرا ، عزمنا على البحث عن هذا الخائن الغادر حيثما كان وانى
وجد ، لا غيره واوبخه على خيانتته وخسة نفسه . .

وفي صباح اليوم التالي ، جلسنا لتناول طعام الفطور ، فاحسنا
بالفراغ الذي خلقته ابنتنا الشقية البائسة ، لما كانت تبعثه فينا جميعا ،
من سعادة وانسراح . .

« وان اردل وصمة في تاريخ عائلتنا كهذه ، لن تدنس عتمة دارنا ولن ادعوه هذه الشقية الكنود «ابنتى» بعد الان !» قالت زوجتى ذلك ، محاولة تخفيف وطأة هذه الصدمة عن طريقة الزجر والانتهاز ...

فقلت لها : « ايتها الزوجة العزيزة لا تتكلمى بهذه الخشونة والعنف ، ان هذا البيت وهذا القلب ، سيكونان على الدوام منتوجين امام ابنتنا الخاطئة المسكينة التائبة .. وكلما اسرعت في عودتها ، كلما كان الترحاب بها اقوى واحر .. سباحث عنها جيشا اجد لها اثرا ، وانى وان كنت لا تستطيع ان امحو العار عنها ، لكننى استطيع ان اضع حدا له وامنعها من مواصلة الغوص فيه .. »

- ١١ -

لم يكن باستطاعة ابنى الصغير ان يصف لنا الشخص الذى دفع ابنتى بيده الى داخل العربة ، لكن ظنونى كلها حامت حول صاحب بيتنا الشاب السيد ثورنهل .. لذلك ييمت وجهى نحو قصر ثورنهل ، وقبل وصولى اليه التفتيت باحد القرويين ، واسر الى بانه رأى سيدة ، تشبه الى حد بعيد ابنتى ، برفقة رجل ... لكن وصف القروى للرجل لا ينطبق على السيد ثورنهل على الاطلاق ، بل ينطبق ، بالاحرى على السيد برتشل !!

لم اقتنع بصحة هذا الخبر ، بتاتا ، لذلك تابعت سبرى الى منزل السيد ثورنهل ... ورغم وصولى اليه باكرا اصررت على رؤيته في الحال . فحضر توا ، وخاطبنى بأسلوب في منتهى الصراحة والاخلاص .. لقد بدالى صادقا في اقواله ، وقد صرح لى قائلا انه شديد الدهشة والحيرة من تصرف ابنتى هذا واقسم بشرفه .. انه لم يكن له علم بكل ما حدث !!

تحولت ظنونى ، اذ ذاك ، نحو السيد برتشل . فتذكرت الاجتماعات الخاصة التى كان يعقدها مع ابنتى . ثم قابلنى « شاهد » آخر ، واخبرنى بان السيد برتشل وابنتى قد وصلا الى « ويلز » . وهى بلدة تبعد قرابة ثلاثين ميلا عن بلدنا !!

لم يخطر لى قط ، وانا في ذلك الاضطراب والقلق الفكرى ، ان ذينك الشاهدين قد اقيما - عمدا - فى طريقى ، لكى يضلانى فاذهب ضاربا في الارض باحثا !!

وعند وصولي بلدة ويلز ، قابلتني شخص ممتطيا حصانا ، تذكرت للحال ، اني سبق واجتمعت وايباه في منزل السيد ثورنهل . فاشار على بمتابعة سقري الى ميدان سباق الخيل - وكان يبعد قرابة ثلاثين ميلا اخرى ، عن ويلز - قائلا اني ان تتبعتهما وسرت في اثرهما ، لعل ادر كهما هناك .

وفي صبيحة اليوم التالي ، واصلبت سيرى نحو ميدان السباق ، فوصلته في الساعة الرابعة من بعد الظهر . . . رأيت السيدات والرجال في عرض جميل جذاب . . . وكلهم منشغلين في «حرفة» واحدة : وهي اللهو والمسرات . اما انا ، فكنت اتحرق باحثا عن «ولد ضال » لارده ، الى جادة الفضيلة - شتان بين التثرين !! وقد لاح لي اني لمحت السيد برتشل على مسافة مني ، لكنه اذ خشي مقابلي ، عند اقترابي منه ، اختلط بالجمع الحاشد وهكذا غاب عن ناظري !!

وعندما رأيت انه من العبت ان استمر في تعقبى ، حزمت الامر على العودة الى بيتى وعائلتى البريئة الساذجة لانها في ميسس الحاجة الى مساعدتى . . . لكن الانفعالات والمشقات التى كابدها ، قد رمتنى في احضان الحمى . . . اذ كنت قد احسست - قبل مغادرتى ميدان السباق - بالحرارة ترتفع في جسمى تدريجيا . . . وقبل ان ابلغ بيتى بمسافة سبعين ميلا ونيف عرجت على فندق صغير قائم على جانب الطريق العام . . . وهناك انتظرت متقلبا على فراش المرض ، بجلد وصبر عجيبين ، الى ان عادت حرارتى الى طبيعتها واستعدت صحتى ونشاطى . . .

مكثت في الفندق مدة تقرب من ثلاث اسابيع . واخيرا تحسنت صحتى وتعافيت : ولكن من اين لى المال لدفع حسابى في الفندق ؟! ان انشغالى فكرى بهذا الامر ، كان يحيلنى الى فراش المرض ثانية ، لولا ان ساعدنى مسافر ، كان قد دخل الفندق للاستراحة ولتناول بعض المرطبات . . . وكان هذا المسافر بائع كتب . . . وقد نشرلى ، في المدة الاخيرة كتابا ، فاستدنت منه بضع جنيها ، وهكذا غادرت الفندق . . . واذا احسست ان في جسمى - لم يزل بعض الوهن ، عزمتم على العودة الى البيت رأسا ، على ان اجتاز المسافة على مراحل مريحة ، عشرة اميال للمرحلة الواحدة في اليوم الواحد . . . وبعد ان سرت مدة ساعتين ، تقريبا رأيت عربة شحن على مسافة منى . فعزمت على اللحاق بها . . . ولما صرت محاذيا لها ، عرفت انها تخص فرقة متجولة من فرق التمثيل المسرحى ، وكانت تنقل مقتنياتهم ومشاهد تمثيلهم الى القرية المجاورة . . .

لم يرافق العربية سوى سائقها واحد الممثلين ٠٠ اما باقى الممثلين ،
فسيحققون بها في اليوم التالى ، فدخلت مع الممثل في حديث طويل ، حتى
وصلنا القرية !

ويظهر ان القرويين قد بلغهم خبر اقترابنا ، ذلك ان عدد كبير من الغوغاء
قد خرجوا الينا واخذوا يتفرسون فينا !! ولما وجدت انى محاطا بهم ، لم
ار لائقا البقاء هكذا في وسطهم فلذت باقرب فندق واعتصمت به ! وهناك
صادفت رجلا مرتديا لباسا انيقة ، فسألنى ان كنت حقا من رجال
الكهنوت ، ام انى كنت اقوم بدور احد هؤلاء الرجال مع فرقة التمثيل
على المسرح ؟! فاعلمته بانى لا امت الى فرقة التمثيل بصلة ٠٠ عندئذ
وبكل ادب واحترام طلب الى والى الممثل مشاركته قدح من النبيذ ٠٠ وفي
اثناء الشراب ، كان مضيفنا يتحدث في الشؤون السياسية والاقتصادية
الحديثة ، وبصورة جدية واهتمام زائد ، عن الملوك والوزراء والاحزاب
السياسية والشرائع والقوانين والمناقشات البرلمانية ٠٠ الخ . الخ .
فقلت في نفسى ، انه ولا ريب ، عضو في مجلس النواب اللندنى ،
يعقد الجلسات هناك ويشترك فى سن شرائع البلاد ٠٠

عندئذ ، سألت مضيفى ان كان باستطاعته تناول العشاء معه فى
الفندق فالح على وعلى الممثل ان نتناول طعام العشاء معا في بيته ٠٠

- ١٨ -

كان بيت مضيفنا يقع على بعد مسافة قصيرة من القرية ، وحيث ان
العربة لم تكن معدة - حسب قول مضيفنا - فقد اقتادنا بنفسه مشيا
على الاقدام ، وما لبثنا ان وصلنا الى منزل لم تقع عينى على مثيله جمالا
وفخامة ، في تلك النواحي من الريف . وكانت الغرفة التى دخلناها ، مفروشة
بابهى الاثاث واثمنه . وكانت الموائد والمقاعد وخزانات الكتب وغيرها من
الاثاث ، من احدث الموديلات واثمنها على الاطلاق ٠٠ وكانت تغطي ارض
الغرفة سجادة جميلة جدا ، جمیع نسيجها مختلف الالوان واحلى
الصور !!

تركنا الرجل برهة قصيرة ليأمر باعداد العشاء ، عندئذ ، غمزنى
الممثل بعينه ، كانه يريد ان يلفت انتباهى الى السعادة التى نحن فيها .
وما عثم مضيفنا ان عاد الينا ، ثم حضر العشاء ٠٠ وكان عشاء فاخرا

جمع من الاصناف مالد وطاب .. ثم عرفنا بسيديتين ، مرتديتين ثيابا ليست غالية الثمن ، لكنها جميلة .. اما حديث المائدة فقد اخذ يزداد قوة وحبورا .. وقد كانت « السياسة » الموضوع المفضل في حديث مضيفنا اثناء تناولنا الطعام ..

قال مضيفنا مقتخرا .. « .. انى ادعو نفسى رجلا حرا ! الحرية ! نعم الحرية ياسيدى ، هى موضوع فخر انكثرا واعتزازها !! واننى لاحترم رجال السياسة الذين يحمون حمى حريتنا !! »

فقلت له : « ارجو انك تحترم شخص الملك ، ايضا ! »
قال : « نعم ، انى احترمه طالما يتصرف حسبا تقتضى امور البلاد ، وحسبما نريد نحن ، رجال البلاد .. ! لكن اذا استمر على تصرفه الاخير .. »

ان كلماته الاخيرة قد استفزتنى ، فتكلمت بقوة وحماس لاهب مدة طويلة وفي ختام خطابى صرخت قائلا : انى مستعد ان اموت فداء الملك ! انى مستعد ان اذهب ضحية عن المملكة ! المملكة المقدسة ! واذا كان ثمت رجل مقدس بين الرجال ، فما ذاك الا ملك الاممة المتوج ! وكل انتقاص من سلطته وقوته هو انتقاص من حريات رعيته الصحيحة !!

لقد حاول مضيفى قطع الكلام على مرارا عديدة ، ولكن لما عيل صبره ، لم يتمكن من كبح جماح نفسه فصرخ قائلا : ماذا تقول ؟! انسى ، اذن جئت بعدو الحرية الى بيتى ؟! اغرب عنى ! امضى ! لا تدعنى اراك ثانية !
حينئذ شعرت بانى تماديت فى الكلام ، فطلبت اليه الصفح عن الاسلوب الجارح الذى تفوهت به ..

فاجاب : « ماذا ؟! اطلب العفو ؟! اظن ان كلمات كهذه تحتاج الى عشرة الاف عفو وعفو !! ماذا تقول ؟! اترغب الى التنازل عن حريتى ؟! كلا ، يا سيدى ، انى اصر على خروجك من هذا البيت فى الحال ! - والا حلت بك اوخم العواقب واسوأها ! انسى اصر على ذلك ، يا سيدى ! فاخرج من هنا !! »

كنت على وشك طلب الصفح منه مكررا ، عندما سمعنا قرعا على الباب فصرخت السيدتان : « حقيقة كالموت ! ان الطارق لا بد من ان يكون سيدنا وسيدتنا وقد عادا الى البيت !! »

يبدو لى ان مضيفى لم يتعد كونه الساقى ، فقد احب ان يظهر بمظهر

الرجل العظيم اثناء غياب سيده ، وان يلبس - ولو الى حين - لبوس سيد البيت نفسه !! والحقيقة ، التى لا شك فيها ، ان حديثه عن الشؤون السياسية والسياسيين ، لم يقل براعة ومهارة عن اى سيد في الريف !

ان الارتباك الذى غمرنى لدى رؤيتي سيد البيت وسيدته الحقيقيين يخللانه ، لا يفوقه ارتباك ، حتى انهما لم يكونا اقل منى دهشة وذهولا . . . فما ان رآنى سيد البيت الحقيقي ، حتى هتف موجها كلامه الى والى رفيقى الممثل : « انى انا وزوجتى ، خادما كما الوضعان . . . انه تفضل منكما لم تكن نتوقعه ! »

لا ادرى على التحقيق ، أأصببت بالبكى ، ام ذهلت عن نفسى ولم اعد اعرف ماذا يجب على ان اقول ؟؟ الحقيقة ، اننى احسست بغاوة لم اشعر بمنهلا قط في حياتى كلها ! . . . وفي هذه اللحظة دخلت سيدة . . . ولم تكن هذه السيدة سوى الانسة العزيزة . . . اربلا ويلموت !! خطيبة ابنى جورج (سابقا) ، والتى كسان سيتزوج بها لو لم تفسخ الخطبة للأسباب الوارد ذكرها في الفصل الاول من الرواية . . . فلما رأتنى ارتمت بين ذراعى وهى في غاية الفرح والحبور ، وصرخت قائلة : « سيدى العزيز الى اية صدفة سعيدة نحن مدينون من اجل هذه الزيارة المفاجأة ؟ انى لعلى يقين بان عمى وعمتى سيبتهجان غاية الابتهاج ، لما يعرفان ان ضيفهما ما هو الا الدكتور برمر وزالصالح ! »

وما ان وقع اسمى على اذان السيد والسيدة صاحبى البيت ، حتى اسرعا الخطى الينا ورحبا بى ترحيبا يدل على عظيم كرمهما وحسن ضيافتهما ! . . .

امضيت ليلتى تلك في غرفة على جانب كبير من الفخامة والبهاء . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، رغبت الى الانسة ويلموت في التنزه معا في حديقة المنزل . . . وبعد ان صرفنا وقتا في التمتع بمشاهدة جمال المكان ومحاسنه ، سألتنى عن اخر خبر وصلنى من ابنى جورج ، متظاهرة بعدم المبالاة ، عند طرحها هذا السؤال كان الامر لا يهمها في كثير او قليل ! . . . لكن انى لها ان تخدعنى ؟ . . .

فأجبته : « يؤسفنى ، يا آنستى ، ان اقول ، انه قد مضى على غيابه ثلاث سنوات لم يكتب خلالها لاصدقائه ، حتى ولا الى . . . اين هو الان ؟ لا ادرى . . . وربما لن اراه ، ثانية ! . . . والحقيقة الظاهرة ، ان القدر قد حرمانا من تذوق كأس المسرات كما كنا نتذوقها ونحن جلوس حول الموقد في واكفيلد ! . . . »

عندئذ ، تساقط الدمع من عيني هذه الفتاة الطيبة ، فامسكت عن الكلام ٠٠٠ وقد سررت عندما عرفت انها بقيت ثابتة على حبها لابني جورج ، وان التغيير لم يعرف الى قلبها سبيلا طوال هذه المدة التي غادرت بها ذلك القسم من الريف ، وانها قد رفضت طلب الكثيرين للترجوع بها ٠٠ ثم دارت ببني في ارجاء الحديقة الفسيحة وهي تشير الى الماشي الجميلة والمظلات الظليلة ، منتهزة كل فرصة سانحة لطرح سؤال جديد حول ابني جورج ٠

دامت الحال بنا هكذا طوال ساعات الصباح وقسما من الظهيرة ، عندما رن الجرس معلنا وقت الغداء ٠٠٠٠٠ واذا دخلنا البيت ، رأينا مدير فرقة التمثيل قد حضر ليعرض علينا تذاكر ، لمشاهدة الرواية التي كان مقررا ان تمثّل في تلك الليلة ٠٠ وقد اخبرنا بان سيقوم بتمثيل الدور الرئيسي في تلك الرواية ، شاب لم يظهر على مسرح التمثيل سابقا : وقد اتنى المدير على هذا الممثل ثناء حارا ، قائلا ، ان هذا الشاب قد خلق لان يكون ممثلا ناجحا ! بل لعله لم يخلق الا ليظهر على خشبة المسرح بل لعل المسرح لم يخلق الا له !! يخرج من حنجرته صوتا عذبا ٠٠٠ كلماته لحننا شجيا ٠٠ اما ظهوره على المسرح ، فيدعو الى الاعجاب والدهشة ٠٠٠ « ٠٠ وقد التقينا به ورافقنا في سفرتنا الى هنا مصادفة »

ان ما سمعناه قد اثار فينا حسب الاستطلاع والفضول ٠٠ ونزولا عند الحاح السيدتين والتماسهما ، رافقتهم الى دار التمثيل ، فاستقبلنا بمظاهر الاحترام والترحاب الحار ، ثم اتخذنا اماكننا في المقاعد الامامية ٠٠ حيث جلسنا ننتظر بفروغ صبر ، ظهور الممثل الجديد !!

واخيرا ، اعتلى الممثل المرتقب المسرح !!

اني اترك للاباء ان يتصوروا الشعور الذي غمرني عندما رأيت ان الممثل الجديد هذا ، لم يكن سوى ابني البائس جورج بالذات !! وكان وشيكا ان يبدأ بالتمثيل ، لمالقى نظرة على جمهور المتفرجين الحاضرين ٠٠ واذا لمحيى والانسة ويلموت وقف على الفور ، لاقدره له على النطق ! جامدا كابي الهول لا يتحرك !!

ظن الممثلون الواقفون خلف الستار ان وقوفه هكذا ، كان ناتجا عن عيبة الموقف على المسرح او تهيب او حياء ! لذلك ، حاولوا تشجيعه بطرقهم الخاصة ، لكنه ، بدلا من ان يستأنف التمثيل ، تفجرت عيناه بفيض من الدموع وهول بعيدا عن المسرح !

لست ادري كيف كان شعورى في هذه المناسبة ، ولكن سرعان
ما نبهتني الانسة ويلموت من ذهولي ، وامرتنى ، بصوت مرتجف ووجه ممتقع ،
ان ارافقها الى بيت عمها . فاجبتها الى طلبها . . . ولما ، علم السيد
« آرنولد » ان الممثل الجديد لم يكن سوى ابنى . . امر الحوذى بالاسراع
فورا ، الى دار التمثيل ، ودعوته الى البيت . . .

جاء ابنى جورج ، فرحب به السيد آرنولد أجمل ترحيب والطفه ،
اما انا ، فحييته بفرح اللقاء ، في حين تظاهرت الانسة ويلموت بالبسرود
وعدم الاكتراث ! لكننى ادركت انها انما تلعب دورا ليس هو من حقيقة
شعورها في شئ . . . والحقيقة ، ان عقلها قد لفته دوار عظيم ! فذكرت
اكثر من عشرين شيئا سخيفا ، تعبريها عن فرحها وابتهاجها ، لكنها
كانت تقهقه عاليا ، كانها تبحث عن معنى لما تقول !!

وكانت الفينة بعد الفينة ، تسترق الخطى الى المرأة المثبتة على الحائط
لتنظر ، خلصة ، الى وجهها ، فتشعر بالسعادة لدى رؤية جمالها السننى
لا يقاوم !!

وبعد قليل من الوقت ، جلسنا جميعا حول المائدة نتناول طعام
العشاء . .

- ١٩ -

بعد تناولنا طعام العشاء ، تفضلت السيدة آرنولد ، وعرضت علينا
خادمين من خدمها لاحضار حقائب ابنى ، فتمنع ، بادب ، عن قبول
هذا العرض الكريم ! ثم عادت وعرضت طلبها ثانية ، لكنه ابى ان يأتى احد
بامتعته . . . واخيرا ، اضطر الى اعلامها بان كل ما يملكه من متاع هذه الدنيا :
عصا واحدة وطرदा صغيرا ، ليس الا !!

فقلت لابنى : « عجب ! كنت فقيرا لما رحلت عنا ، وانك لتعود الينا فقيرا
ايضا ، ومع ذلك ، لا اشك في انك رأيت الشئ الكثير من العالم ! »

فقال : « نعم ، ياسيدى ، ان حافظة نقودى خالية من النقود كما كانت
عندما رأيتك آخر مرة ! لا بل لم تكن قط خالية من النقود خلوها
الان ، كان فيها ، قبلا ، بعض الريالات اما الان ، فليس فيها بنسا واحدا !!

عندئذ، التفتت إليه السيدة آرنولد وقالت : « اظن ان قصة مغامراتك،
ياسيدى ، لا بد من ان تكون مسلية وطريفة !! »

فاجابها ابني : « سيدتى ، ان فرحك بالاستماع اليها لا يعادل نصف فرحى
بسرود حوادثها . - فحالما وصلت لندن لم يكن هناك شىء يعيننى سوى تسليم
رسالة التوصية التى كتبها والذى لابن عمنا . . . وكان مشروعى الاول
الذى رسمته لنفسى ، هو ان اكون مدرسا في مدرسة داخلية . . . »

« فطلبت نصيحة ابن عمى ، فقال ، « لقد كنت مدرسا في مدرسة داخلية ،
انا بالذات ! وافضل ، بالاحرى ، ان اكون سجانا على ان اكون مدرسا
- كما كنت سابقا - في مدرسة داخلية » كنت انهض مع الفجر ولا اوى الى
فراشى الا متأخرا مع الليل ؟! علاوة على ذلك ، فقد كان المدير يشتمنى ،
وكانت الرئيسة تكرهنى لدمامسة وجهى ، وكان الضجر يملأنى بسبب
التلاميذ في الصف ؟! ولم يكن مسموحاى الخروج لاستنشاق الهواء ولو
لدقائق معدودة ! . . . أوافق انك تستطيع ان تكون مدرسا في مدرسة
داخلية ؟! دعنى امتحنك ، واجبنى . . . هل تستطيع ان تكبح جماح تلاميذ
« كالعفاريت » ؟؟ »

« قلت ، لا يمكننى ذلك » - كذلك لا يمكنك ان تكون مدرسا
داخليا . . . وهل تأكل كثيرا ؟ أعنى ، هل اوتيت شهية طيبة على التهام
الطعام ؟!

قلت ، نعم . . .

- اذن لا يمكنك ان تكون مدرسا داخليا . . . اسمع ! اذا اردت ان تكون
لنفسك مهنة محترمة ، فخير لك ان تعمل اى عمل تستطيع ان تقوم به
يداك ، لكن حذار ان تعمل في مدرسة ! ثم تابع ابن عمى كلامه « . . . مع ذلك
فانى أرى انك واسع الخيال ، وثقاقتك لا بأس بها . . . فما رأيك
في ان تكون كاتباً . . . مثلى . . . ؟ لا شك انك قرأت عن نوابغ الرجال
الذين عاشوا دون ان تكون عندهم كسرة خبر يتبلغون بها . . . محرومين
من مقومات الحياة باتخاذهم « التأليف » مهنة لهم . . . لكنك لست مضطرا
الى ان تحرم نفسك من الطعام ، وان تكتفى بكسرة الخبز ، وانما يمكن
ان يتوفر لك من الطعام اطيبه وان كثيرين ممن يعيشون باقلامهم ،
بل ممن أثروا من صناعة الادب ، لم يهبهم الله ذكاء فذا ولا نبوغا خارقا ،
بل ان منهم من لو شاء ان يعد نفسه اسكافا ، لما اعانه ذكاؤه ولا سمته به
كفايته فوق ترقيع النعال العتيقة ! »

«عندئذ» حزمت امرى على العمل حسب اقتراحه ، وكتبت كتابا طريفا
فى نوعه ...

وهنا قاطعت ابنتى سائلا اياه فى لهفة وشوق : « وماذا قالت جمهرة
الادباء والمثقفين يا بنى ، فى كتابك هذا ، وكيف تلقوه ، واى نقد
وجهوا اليه ؟ »

— لم تقل جمهرة الادباء والمثقفين فى كتابى شيئا ، يا ابت ، ولم
تستقبله ولم توجه اليه نقدا ما . لقد منيت بفشل ذريع ، يا ابنت ،
فقد لقي كتابى شر انواع النقد الذى يمكن ان يصبه الناقدون على
كتاب وهو الاهمال ! ثم اردف « كنت ذات يوم جالسا مكتئبا ، فى المنزل
العام ، عندما اقترب منى شاب وسيم حسن اللباس انيقه ، وكنت اعرفه
جيذا ، فقد كنت واياه ايام التلمذة فى جامعة اكسفورد . ولما كان متأنقا
جدا بلباسه ، احس بالخجل ، خوفا من ان يراه احدهم بصحبة شخص
قذر زرى الهندام ! . ومع ذلك ، كان « تد ثورنهل » طيب القلب ،
حسن السيرة ! .

فقطعت الكلام على ابنتى وسألته : « ماذا تقول يا جورج ؟ ثورنهل ؟ !
اذن ، فلا بد من ان يكون « ثورنهل » هذا صاحب بيتنا بالذات !! »

فصرخت السيدة آرلوند : « يا ألهى ! جاركم ؟ ! انه صديق عائلتنا
منذ زمن طويل ، واننا ننتظر زيارة منه عن قريب ! »

ثم استطرد ابنتى يقول : « اعطاني صديقى بذلة نظيفة جدا ، من ثيابه ،
وقبلنى فى بيته كصديق وخادما له فى آن واحد . . . كان عملى ، التحدث
اليه ، والجلوس عن يساره فى العربة ، وفتح زجاجات الشراب له ، وان اغنى
له عندما يأمرنى بالغناء ، وكنت اقوم ببعض الاعمال الصغيرة التى كان يود
انجازها . . وكان على — بحكم عملى — ان اكون دائما ، بشوش الوجه
حسن المزاج ، متواضعا على الدوام ، — وان اكون سعيدا ما استطعت الى
ذلك سبيلا ! حتى الزمت مرة ، ان اقاتل رجلا ، كان قد اساء السيد
ثورنهل الى عفاف اخته ، — كما قيل لى — ! وقد ابدى لى عظيم شكره
وامتنانه تجاه هذه الخدمة التى قمت بها ! ولما غادر لندن ، اعطاني كتاب
توصية الى عمه الوجيه النجيل السروليام ثورنهل ! . .

« حملت الرسالة الى السر وليام ثورنهل ، هذا الرجل المعروف لدى
الجميع ، وفى كل مكان من بلادنا . بفضيلته وصلاحه ، ويكونه اطيب
الناس نفسا واكثرهم طرفا ولطفًا ؟

« قرأ الرسالة ٠٠ وبعد توقف بضعة دقائق ، التفت الى وقال : « لقد قاتلت من اجل قريبى ، وتأتى الى ، منتظرا ان اكافئك على ما قمت به من «خدمات» من اجل سفالته واثامه ؟ انى امتنع عن تقديم اية مساعدة لك ! وارجو ان يكون امتناعى عن مكافأتك عقابا لك على جرمك !! بل بالاحرى ، ارجو ان يحملك امتناعى هذا على التوبة والندامة ! »

« ولما تركت منزل السر وليام ثورنهل ، قابلت صديقا لى ، وكان ربانا لاحدى السفن ، فقال لى :

« ان سفينتى ستقلع الى هولندا يوم غد ، والسفرة قصيرة وممتعة ومريحة ايضا ، فهلا سمحت لى بأن ادعوك الى مرافقتى كاحد المسافرين ؟ وكل ما عليك القيام به ، هو تعليم التلامذة الهولنديين اللغة الانكليزية ، واؤكد لك ، انك ستحاط بعدد كاف من التلاميذ وستكسب قدر من المال لا بأس به !

« فطنت ، بعد وصولى هولندا ، شيئا كان من الواجب تذكره قبل ذلك ٠٠٠ تذكرت انه ان كنت ارغب في تعليم الهولنديين اللغة الانكليزية من الواجب ان يعلمونى - اولا اللغة الهولندية ٠٠٠

« ثم التقيت بطالب عائد من جامعة «لوفان» وعلمت منه ، انه لا يوجد في تلك الجامعة من يفهم اللغة اليونانية ٠٠ ولوقت ، عقدت النية على السفر الى لوفان ، لعلى اكسب عيشى عن طريق تعليم اللغة اليونانية ٠٠٠

« وصلت لوفان ، ثم اتجهت توالى مكتب رئيس الجامعة ، فرأيتنه جالسا في مكتبه ، خلف منضدة يكتب عليها وحوله عدد كبير من الكتب ٠٠٠ فعرضت عليه خمساتى ، كمدرس للغة اليونانية ٠٠٠

« فاجابنى قائلا : انى لم اتعلم اليونانية ، ومع ذلك ، لم اشعر قط بانه فاتنى شيئا منها ٠٠٠ ثم ان مكتبتنا مزدانة بكتب لا يحصى لها عدد ، مكتوبة كلها باللغة اليونانية ، ومع ذلك ، فانى لا اقرأ شيئا منها ٠٠٠ وقد نلت درجة دكتوراه ، دون ان اتعلم كلمة يونانية واحدة !! واكمل بشهية عظيمة ، بدون اللغة اليونانية ٠٠٠ وبالاختصار ، فانى لا اعرف اليونانية ، ولا اعتقد بوجود خير فيها ! »

« ثم ادار بوجهه الى المنضدة ، واستأنف الكتابة ٠٠ !

« كان عندى المام بالموسيقى ، وصوت لا بأس به ٠٠٠ ولقد قلت لى مرة ، يا سيدى ، ان غنائى من «النوع الوسط» وان كنت لا اقدر ان اقول

انه جيد ! ٠٠٠ وقد استحال ، الان ، ما كنت احسبه مصدرا من مصادره
التسلية واللهو ، الى وسيلة من وسائل العيش والارتزاق ٠٠

« ان القرويين في هولندا وفرنسا فقراء ، لان ما يكسبونه من فلاحه
الاراضى ، قليل جدا والضرائب ثقيلة عليهم ، ومع ذلك ، ترى افقرهم
اكثرهم شوقا وحنينا الى المسرح والطرب !! وكلما زاد فقرهم زاد
معهم نشاطهم وحيويتهم ، وتضاعفت خفة روحهم ٠٠٠ فكنت حينما اقترب
من بيت احد القرويين ، عند هبوط الليل ، اعزف اجمل الالحان ، فاحصل
بهذه الوسيلة على مكان ابيت فيه ليلتى وعلى «صرة» من الطعام ،
تكون زادا لى في اليوم التالى ٠٠

«وهكذا كنت اضمن طعامى ومييتى حتى اجتزت هولندا وفرنسا ، ومنها
الى ايطاليا ٠٠ وهنا توقفت عن العزف ، لان مهارتى لا تجدى شيئا
في بلد يعتبر القروى فيه اطول باعا واكثر مهارة منى في هذا الفن :
الموسيقى !!»

« حينئذ ، اتجهت شطر انكلترا ، وما ان وصلت ارض بلادى ، حتى
عزمت ، اولا ، على ان افى حقا على بتقديم احتراماتى ، يا سيدى ، ومن
ثم ، التحق بخدمة الجندي خارج البلاد ، حيث القتال دائر ٠٠ فالتقيت
اثناء مجيئى ، باحد المعارف القدماء . كان قد انضم الى فرقة للتمثيل تجوب
انحاء الريف !»

— ٢٠ —

كان ابنى قد اوشك على انهاء قصة مغامراته ، عندما ظهرت عربة فخمة
تدنو من البيت ٠٠ كانت هذه العربة عربية السيد ثورنهل بالذات ٠٠ وقد
اخبرنى الساقى ، همسا — بناء على الصداقة التى عقدت اوامرها بينى
وبينه — ان السيد ثورنهل ، كان يطارح الانسة ويلموت الغرام ، وبان
عمتها وعمها لم يحاولا ايقافه عند حده بل لعلهما راضيان عن ذلك ، كل
الرضى !!

دخل السيد ثورنهل ، واذ وقع نظره على وعلى ابنى اجفل ، وبدا
عليه الفزع ! ولكن لما تقدمنا لتحيته ، رد تحيتنا باسلوب ودى خالص !
وبعد ان تناولنا الشاى ، دعانى السيد ثورنهل على انفراد ليسألنى

عن ابنتي .. فلما علمته ان كل محاولاتي لاستقصاء امرها ذهبت
سدى ، اخذته الدهشة وتملكته الحيرة ! ثم سألتني ان كنت قد
اطلعت الانسة ويلموت او ابني على النكبة التي المت بابنتي اوليفيا ، فاجبته
سلبا ! عندئذ ، ابدى موافقته على تحذري وحسن تبصري ، ثم توسل
الى مستعظفا ، ان اكتم القضية كتماناشديدا ، ثم قال : « اني الح عليك ان
تطوى القضية لمصلحتك انت .. لانه لا فائدة للانسان من آفشاء عيوب
نفسه واذاغة فضائحه ... ولعل الانسة اوليفيا ليست مذنبه ، كما
تتصور !... »

قطع علينا الحديث احد الخدم ، اذ جاء حاملا رجاء من السيدات
يطلبن الى السيد ثورنهل مشاركتهم الرقص ، فتركني فورا ، وقد
سرنى جدا اهتمامه الظاهر بشئووني ومصالحى الخاصة !..

اما تودده الى الانسة ويلموت ، فكان اوضح مما يستطاع احتمال الخطأ
فيه !! الا انها لم تكن جد مطمئنة الى ذلك ، وقد سمحت به نزولا عند
رغبة عمتها ، لا استجابة لرغباتها وميولها الشخصية ! والذى سرنى
كثيرا ، ما لاحظته على الانسة ويلموت من انها كانت تخص ابني بنظرات
الطف وارق من تلك التي كانت تخص بها السيد ثورنهل ، رغم ثروته
وجاهه ورعايته الخاصة لها ! غير ان السيد ثورنهل لم ييأس ولم ينزعج ،
بل على العكس تماما ! فقد كانت صداقته لابني تتزايد يوما بعد يوم مع
تزايد الرقة والعطف للذين كانت الانسة ويلموت تظهرهما لابني جورج

في صبيحة يوم رحيلنا جاءنى السيد ثورنهل مبتهجا ليعلمنى بانـه انى
خدمة لصديقه جورج ، وذلك بتعيينه ضابطا في كتيبة من الجنود مسافرة الى
جزر الهند الغربية ، وان جورج نفسه سيسافر معها ايضا ، في اليوم التالى
.. لكى يتأكد من ان العمل قد امن عليه تماما ...

استأذنت العائلة المحترمة ، التي اضافتنى ، بالانصراف وودعت السيد
ثورنهل مع عبارات الشكر والامتنان لاجل لطفه وفضله علينا ، ثم يمت
وجهى شطر بيتى ، قانطا من لقاء ابنتى ثانية !! كانت الريح صرصرا ،
فتدثرت بجيتى تدثرا محكما ، وادرت بتيقتى حول عنقى تماما .. ومع انى
ما زلت ، آنئذ ، اشعر بوهن في جسمى الا اننى كنت اعزى نفسى باللقاء سريعا
بمن اعتبرهم اعز الناس لى ..

لما اقبل الليل ، دخلت فندقا صغيرا قائما على جانب الطريق العام ،
وطلبت الى مديره مشاركتنى في زجاجة من النبيذ .. تناولنا مختلف

المواضيع في حديثنا ، الى ان جئنا ، مصادفة ، على ذكر السيد ثورنهل ،
الاقطاعى الشاب ٠٠٠ فقال لى مدير الفندق ، ان السيد ثورنهل مكروه
جدا ، - ولكن بالنظر لكون السروليام ثورنهل عمه ، يحبه الناس
حبا جما ٠٠٠ ومما ذكره لى بخصوص الشاب ثورنهل ، انه يغدر بالبنيات
الذين يدعونه الى بيوتهم لاضافته والترحيب به !! وفيما نحن كذلك
دخلت علينا زوجة مدير الفندق وصرخت في وجهه قائلة : « انك
تعاملنى معاملة سيئة يا سيدى ، ولا طاقة لى على احتمال اكثر مما احتملت
من بلادتك ! لقد انهيت ثلاثة ارباع العمل المتروك لى ، اما الربع الاخير
فقد ترك على حاله غير منجز : بينما تجلس انت عاطلا ، لا هم لك سوى
معاقرة الخمرة طوال النهار مع الزبائن ! فكيف بالله ، تستطيع
اكتساب المال او الحصول على الريح بهذه الطريقة ؟! ام انك تؤثر
ادارة عملك بدون ربح ، او بالاحرى ، بخسارة ؟! »

عندئذ ، سكبت لها قدحا من النبيذ ، فتقبلتها منى باحناة وتمنت
لى صحة جيدة ٠٠٠ ثم التفتت الى وقالت :

« ان الذى يغضبى ، يا سيدى ، ليس الريح الذى نخسره ، وانما
حقيقة كون فندقنا صائرا الى الافلاس والخراب !! فان كان ثمت زبائن
يتمنعون عن دفع حسابهم ، فالستى تطالبهم به وتجبرهم على الدفع ، هى
انا ! اما هو ، - تشير الى زوجها - فيفضل بالاحرى ان « يأكل » كاسه
على ان يلاحقهم ٠٠٠ »

« لقد جاءتنا ، اليوم ، امرأة شابة لتبيت ليلتها عندنا ، واعتقد انها لا
تملك بنسا واحدا ! انها بطيئة بالدفع جدا ! افلا تعتقد بانه يجب علينا
تذكيرها بذلك ؟ »

فأجابها زوجها : « وما الفائدة من تذكيرها ؟ ٠٠ اذا كانت بطيئة في
الدفع ، فالدفع اذن ، محقق ! »

فصرخت الزوجة : « محقق ! لقد صممت على تسلم المال منها اول الليلة
هذه بالذات ! والا سأضطر الى طردها من هنا بقضها وقضيضها ! »

حينئذ صرخ الزوج : « تبصرى قليلا ، يا عزيزتى ، انها سيدة فاضلة
وجديرة بكل احترام ! »

فقالت : « سواء اكانت فاضلة ام لم تكن ، يجب ان تخرج من هنا حالا ! »
قالت ذلك ثم اقتحمت المطبخ ومنه ارتقت السلم الضيقة الموصلة الى

الغرفة فوقنا ، وكان باستطاعتنى ، وبكل ارتياح ، ان اتميز صوتها
بوضوح تام ، ومن ضراوته وخشونته قدرت ان ادرك فشلها في الحصول على
اى مال من نزيلة فندقها ٠٠ واخيرا صاحت بجفاء ، قائلة : « ادفعى حسابك
كاملا والا اخرجى في الحال ! ماذا ؟ ايتها المخلوقة الفاجرة ! اتأتين للاقامة
في فندق شريف ، دون ان تحملى قطعة واحدة من النقود معك ؟ اخرجى !
اقول لك اخرجى !!

فقالت السيدة الغريبة : « ايتها السيدة الكريمة ! ارثى لحال مخلوقة
مسكينة عاجزة ! ٠٠ وارحميها واسمحي لها بالمبيت هذه الليلة
فقط ! ٠٠ والموت كفيل بان يريحك منها الى الابد !! »

وحالا ، عرفت ان الصوت لم يكن الا صوت ابنتى المحطمة المسكينة
(اوليفيا) ! فاسرعت الى نجدتها ، بينما كانت المرأة تجرها من شعرها ،
فاخذت المخلوقة المخنولة البائسة ، بين ذراعى ، وصرخت : « اهلا
وسهلا باعز من ضل من اولادى !! اهلا بالكنز المفقود ! الى حضن ابيك
الشيخ المسكين !! »

« آه ، يا والدى ! » قالت ذلك ، وبقيت بضع دقائق لم تستطيع فيها
ان تنطق بحرف ٠٠٠ ثم نظرت الى كالكبرى ، وقالت « آه ، يا عزيزى !
من ارى ! والدى الصالح نفسه ؟ يا اعز الناس لى ! ٠٠ هل يقد رملك من
السماء ان يكون الطف منك وارحم ؟ لماذا لا تلعننى ؟ لماذا لا تنحى على
باللائمة ؟ هذا السافل الدنى ! انى أمقته ٠٠٠ وادينه ٠٠ وادين نفسى ،
انا ايضا ! انى لك ان تصفح عنى ؟ انا اعرف انك لا تقدر على ذلك !!

— « بلى ، يا ولدى ، اقدر ان اصفح عنك من اعماق قلبى ٠٠ » ثم انتحيت
بها مكانا في غرفة خاصة ، حيث نستطيع ان نتحدث بحرية اكثر ٠٠

فقلت لها : « انه ليدهشننى ان شخصا كالسيد برتشل ، المعروف
بحسن ادراكه وظاهر شرفه ، ان يكون مجرما ، سافلا ، ندلا ، خسيسا ! »

فقطعت على الكلام قائلة : « انك لتركب خطأ ، يا ابنت العزيز ! ٠٠٠
ان السيد برتشل لم يحاول قط خداعى ، بل كان ينتهز كل فرصة
سانحة يحذرنى فيها من الوقوع في حبال السيد ثورنهل ومؤامراته !! »

— « السيد ثورنهل ؟ هذا غير ممكن !! »

— « اجل ، يا سيدى ، ان الذى خدعنى وراودنى عن نفسى هو السيد

ثورنهل نفسه!! لقد استخدم سيدتين كانتا فعلا من لندن - لآخذنا معهما إلى لندن بوصفنا «مرافقتين» لهما! لكن رسالة السيد برتشل قد افسدت عليهما الخطة الشائنة التي رسمتاها وكشفت عن حقيقة شخصيتهما: انى مقتنعة تمام الاقتناع ، بان السيد برتشل كان اخلص الاصدقاء واكثرهم غيرة على!!»

فصرخت عندئذ ، «ان كلامك هذا قد ملاعنى حيرة ودهشة! ولكن ، قولى لى ، يا ولدى ، ما هى المؤامرة التى مكنت السيد ثورنهل من خداعك والمكر بك؟؟»

- «ان الاحتفال بعقد قراننا قد جرى سرا!..»

- «ماذا تقولين؟ هل عقد القران، حقا ، من قبل احد الكهنة ، وبمقتضى شعائر الكنيسة المقدسة!؟»

- «نعم ، يا سيدى ، قد تم ذلك فعلا!!»

- «اذن ، انت الان زوجته!؟»

- «ولكن يا للاسف يا بابا! لم يكن الزواج شرعيا ، لانه لم يكتب على الاوراق الشرعية اللازمة... ان القران اذا تم سرا ، فمن الضرورى - كما تعلم - الحصول على رخصة شرعية يسمح بموجبها عقد مثل هذا القران... ولما كان السيد ثورنهل لم يحصل على رخصة شرعية تسمح له بالاقتران بى ، لذلك ، لم اكن زوجة شرعية له!!..»

«هذه هى المؤامرة التى خدعنى بها... ولكن ما مر من الزمن الا القليل حتى تبين لى اننى لا استطيع ان اثق باخلاص محبته الا قليلا جدا ، اى بقل ما كان يبيده لى... وما عثم ان ملنى ، وبدأ يتأفف من مجرد رؤيتى... وكان يزداد سفاهة وتصلفا يوما بعد يوم... وكنت اقترب من هاوية التعاسة والشقاء اكثر فاكثر... ثم رغبت في الافتراق عنه... ولما اعلته بذلك ، قدم لى كيسا من الدراهم! فكانت تقدمته هدية ، اعترافا منه باهانتة لى وازدرائه بى!! وهل هنالك استهانة بشرف امرأة وكرامتها وعزة نفسها اعظم من ان تبيع حبيها واخلاصها بالمال!؟ فما كان منى الا ان قذفته بالكيس تحت تأثير الغضب الشديد ، على وقاحته وخساسة نفسه!! ثم استقلت عربية ، كانت مارة من هناك... حتى انزلتنى هنا في هذا المكان!..»

في صباح اليوم التالي ، انطلقت في طريقى الى البيت . . . وكنت كلما تقدمنا في سيرنا ، احاول ان اهدى من روع ابنتى «اوليفيا» واخفف عنها احزانها ومخاوفها ، وامدها بالقوة وبالتجدد لمقابلة امها المتكدرة المسكينة . . . فاكدت لها بانها لن تلاحظ اى تغيير في معبتي وعواطفى نحوها ، وان بإمكانها الاعتماد على كحارس لها وصديق وولى امرها ما حييت . . . وما طويلا بضعة اميال من سفرتنا ، حتى استكنت وهذا جأشها . . .

ولما دهمنا الليل ، توقفنا فى فندق يبعد عن البيت حوالى خمسة اميال ، فرغبت في تهيئة العائلة لاستقبال اوليفيا . . . لذلك عزمت على تركها في الفندق تلك الليلة ، على ان اعود اليها في الصباح الباكر من اليوم التالى للتيان بها الى البيت . . .

بعد ان امننت لها غرفة جيدة فى الفندق ، عانقتها وقبلتها بگل حنو ابوى ، ثم يمت وجهى شطر البيت وكنت كلما دنوت من ذلك المسكن الهادى الامين ، اشعر بالفرح يملأ قلبى . . . وكما يحوم الطير حول عشه ويرفرف فوقه كأنه خائفا عليه من الاذى ، هكذا كانت افكارى تتقدمنى في مسيرى البطء ، وتحوم حول «موقدى» الصغير . . . استذكرت الاشياء الجميلة التى كنت احب ان اقولها ، وفكرت بالاستقبال الذى سألاقيه فاحسست ، مقدما ، بعناق زوجتى اللطيف ، وابتسمت لفرح ولدى الصغيرين ! . . .

من الهزيع الاول من الليل . . . وكان العمال قد آووا جميعا الى اسرتهم طلبا للراحة وقد اطفأت الانوار في الاكواخ جميعها وكان السكون يعم المكان ، فلم اسمع صوتا او نأمة ، الا صياح الديكة ونباح الكلاب على بعد

دنوت من مسكنى الصغير ولما صرت على مسافة مائتى ياردة منه ، اسرع كلبنا الامين راكضا نحوى ، وهو ينبج نباحا قويا مزعجا !

كان الوقت نصف الليل ، عندما قرعت باب بيتى ، وكان كل شئ ساكن هادى فاحسست بالسعادة تملأ قلبى ! . . . ولكن ما أعظم ما كانت دهشتى عندما رأيت البيت يلتهب ! وقد استحال كله من الداخل ، شعلة من نار امتدت السننها الى النوافذ ، حتى بدت هذه حمراء من شدة اللهب !! فندت عنى صيحة عالية مدوية ، وارتيمت على الارض

فأقد الوعي !! حينئذ ، هب ابني موسى من رقاده مذعورا لدى سماعه صرختي ، واذ رأى السنة اللهب ايقظ زوجتي وابنتي ، فخرج الجميع نصف عراة ، وقد أخذ الخوف منهم كل مأخذ ، مما أعادني الى رشدي ..

كانت السنة النار قد امتدت الى السقف .. فأخذ ينهار كتلة بعد كتلة !! .. اما العائلة ، فقد وقفت تتطلع واجمة ساهمة !! نظرت اليهم ... منقلا بطرفي هنا وهناك ، لعل ارى ولدي الصغيرين ، لكنني عبثا حاولت رؤيتهما ! فصرخت :

« اين ! اين هما ! ولدي الصغيران ! »

فاجابت زوجتي بكل هدوء : « لقد ذهب طعما للنار ... وسأمت معهما ، انا ايضا !! »

ولوقت سمعنا صراخ الطفلين داخلا ، اذ كانت النيران قد ايقظتهما ! فصرخت : « اين انتما يا ولدي ! » ثم اندفعت الى الداخل ، وسط النيران ، واقتحمت الغرفة التي كانا قد حبسنا فيها ، وصرخت مناديا : « اين انتما يا ولدي ! » فصرخا معا « هنا ، هنا نحن يا بابا العزيز ! »

كانت النار قد امتدت الى اطراف الفراش الذي كانا نائمين عليه . عندهما حملتهما وعدوت بهما وسط اللهب .. وما كادت قدامى تطأان عتبة الباب ، حتى انهار السقف بكامله !!

فصرخت وانا حاملا ابني بيدي : « والان لتستعر النيران ما شاء لها الاستعار ، ولتأث على مقتنياتي كلها ، لقد انقذت كنوزي وهذا حسبي وكفى ! » ثم حضنت ولدي العزيزين وقبلتهما « الف قبلة وقبلة » وكانت امهما تضحك حينما وتبكي حينما اخر اوالجدير بالذكر ، ان امتعنا كلها (مع الدراهم التي كنا قد ادخرناها لمستقبل ابنتينا) قد ذهب ما كـلا للنار !!

لقد امدنا الجيران بالشباب ، وفرشوا احد الاكواح في الحديقة قرب بيتنا ، واعادونا بعض القدر ورواوى الطهي الضرورية .. وما ان اصبح الصباح ، حتى تهيأ لنا مسكن صغير حقير ، نأوي اليه !!

واذ ذاك ، تقدمت لتهيأة العائلة لاستقبال ابنة الضالة .. الا انه لم يبق لدينا شيء نقدمه لها ، سوى البؤس والشقاء !! ومع ذلك ، احببت ان ارحب بها في كوئنا الحقير ، لتعيش معنا وتخوض جهادنا !

وحيث ان كنفى وذراعى قد اصيبا بحروق موجعة ، اثناء عملية انقاذ
ولدى الصغيرين فقد انتدبت ابنتى للاتيان باوليڤيا الى البيت .
وفي غضون ذلك ، حاولت استرضاءهما وحملها على محبة ابنتها والصفح
عن زلتها ، لكننى لم استطع تماما ، ان اوفق بينها وبين ابنتها الخاطئة
المذنبه ! . ان النساء ابعد من الرجال في الصفح عن سيئات غيرهن
من النساء والمصالحة الحقيقية لا يمكنها « السير » في طريق لم يعبدها
الصفح والغفران ! . . .

عاد ابنى موسى وابنتى صوفيا ، يسندان اختهما الخاطئة الشقية .
وكانت من الخجل والاستحياء الشديد ، بحيث لم تتجرأ قط على النظر الى
امها !!

حينئذ ، قالت لها امها : « آه ياسيديتى ، لم تقصدى الا مكانا حقيرا ،
انت التى دانت لك عوامل الابهة والجاه والسعادة والشاء . . . ! اما
نحن ، انا وابنتى صوفيا ، فاننا لانستطيع ان نقدم الا القليل من
اسباب الترفية والسعادة والضيافة ، لمن كانت في عشرة النبلاء وذوو الوجاهة ،
المتقلبين في اعطاف البذخ والتترف نعم ايتها الانسة اوليفيا ! لقد عانينا
الكثير من المتاعب ، والشقاء ، مؤخرا ، ومع ذلك ارجو ان يسامحك الله
ويغفر لك ذنوبك ! »

وقفت المسكينة اوليفيا ، شاحبة اللون ممتعة ، وقد سرت الرعدة
في مفاصلها ، لا تجده الى البكاء سبيلا ولا الى الجواب دليلا . . . ! عندئذ
لم استطع البقاء هكذا صامتا متفرجا على هذه المخلوقة البائسة المكروبة
فقلت لزوجتى بحدة :

« ارجوك ايتها الامراة ، ان تستمعوا جميعا الى كلماتي ، وان تذكروها
الان وكل اوان . . . لقد جئتكم الى هنا ابنة شريفة ضاله مخدوعة . . . ! وان
عودتها الى واجبها نحو عائلتها ، تتطلب محبتنا لها وعطفنا عليها . . . !
هذا ، وان مشقات الحياة وشدائد الحقيقة ترحمنا سريعا وتدهمننا
دوما فلنتعاهد ، اذن ، على ان لا نضاعف مشقاتنا والامنا بمخاصمتنا
بعضنا بعضا . . . فاذا استطعنا ان نتحد معا لنعيش بانسجام ووفاق ،
يمكننا آئذ ، ان نكون قانعين مسرورين . . . ! ان الله قد وعد الصابرين والتائبين
بفضله وكرمه . . . فلنقتد بهذا المثل ، عسى الله يوفقنا ويفرج كربنا . . . !
ان ايقاع القلوب البشرية لا عذب انواع الموسيقى واحلاها على اذننى
الله سبحانه وتعالى . . . ! »

لم يكن سهلا جعل مسكننا الجديد ملائما للسكن فيه ، بل اقتضى ذلك بعض الجهد الشاق المرهق ، ولكن سرعان ما استعدنا حياتنا السابقة الهنيئة المظمئة وعشنا فرحين مغتبطين

لكن اوليفيا استمرت على حزنها وكآبتها ، وكانت تذوب اسى يوم بعد يوم ، وكانت حياتها تدنو من سفير الهاوية ، تحت وطأة الحرق والشفاء ! فكانت اذا وجدت نفسها بين ظهرانينا ، تخشى التحقير والازدراء ، واذا انكمشت في غرفتها واخذت بنفسها في خلوتها ، استسلمت الى الغم والكدر وناءت تحت ثقل افكارها المحزنة !!

ما زالت ابنتى سليبية الشقاء ، تذوب لوعة ، واسى ، عندما بلغنا خبر مؤداه ، ان السيد ثورنهل على اهبة الاستعداد للزواج بالانسة ويلموت !! مما زاد في كرب اوليفيا ولوعتها ، فحزمت امرى على التاكيد من الخبر والتثبت من صحته ثم ، على ابطال خطته والحيولة دون تحقيق هذا الزواج !! من اجل ذلك بعثت برسالة مع ابنى موسى الى السيد ويلموت ، اطلعه فيها على تصرف السيد ثورنهل المشين تجاه عائلتي !

لقد خاب فالى ، اذ عاد ابنى موسى دون ان يستطيع تسليم الرسالة الى السيد ويلموت ، لغيبابه - يومئذ - عن البيت ! ثم حدثنا موسى عما علمه من رحلته هذه قال :

« ان السيد ثورنهل والانسة ويلموت سيتزوجان بعد بضعة ايام ... وقد ظهرا في الكنيسة معا ، ويخرجان سوية كل يوم ، للتنزه راكبين .. وقد رأيت اصدقاء العائلتين هناك ، منهم السر وليم ثورنهل - عم الاقطاعى الشاب - .. وقد انتاب الجميع الفرح والسرور .. ولا شئ يشغلهم سوى المرح والانسباط والولائم قائمة على قديم وساق ، كان ايامهم اعياد ؟! .. وازك لتسمع هناك ، جميع الناس ، يطرون على جمال العروس الشاببة ويشنون على بهاء منظر العريس .. ويبالغون في مدحهم ويقولون ، ان الواحد منهما كلفا بالآخر ومولع به الى حد كبير !! » ثم قال لموسى في نهاية كلامه « .. فلم اتمالك نفسى ، عندئذ من الاعتقاد بان السيد ثورنهل هو اسعد مخلوق على وجه الارض ! »

فامتلاء قلبى شفقة وحنانا على ابنتى الشقية البائسة !!

كان الجو وضاء شامسا صباح اليوم التالي ، فعزمنا على تناول طعام
الغطور في الحديقة ٠٠ وما كدنا ننتهي من الغطور ، حتى ذعرنا
جميعا لدى رؤية عربة السيد ثورنهل عن بعد ، متجهه نحونا ٠٠! وللوقت
نهضت اوليفيا مع اختها (صوفيا) وعادت الى البيت ، رغبة منها فى
تحاشى رؤية من غدر بها وشقاها ٠٠

واذ ترجل السيد ثورنهل من عربته ، تقدم الى حيث كنت بعد
جالسا ، واستفسر عن صحتى ، متكلما اللفة والصدقة الاعتياديتين ؟
فاجبته : « ان وقاحتك ، ياسيدى ، تجعل اخلاقك تبدو اكثر حطوة
ونذالة في نظرى ٠٠! لقد مر الزمن الذى كنت استطيع فيه ان اعاقبك
على عتوك واهانتك لنا ، بتجروك على الظهور امامى ٠٠! اما الان ، فانت
في مأمن منى ، لان الشيخوخة قد خففت من حدتى وحرارة عواطفى ،
فضلا عن ذلك ، فان طفمة القيسوسة ترد عنى عن الحاق الاذى بك ٠٠! »

فرد السيد ثورنهل : « ان كلامك ليدهشنى حقا ! بل لست افهم ماذا
تعنى ؟! وارجو انك لا تعتبر رحلة ابنتك الاخيرة معى ، عملا جنائيا
مخلا الشرف والتقاليد !! »

فصرخت به : « اغرب عن وجهى ، ايها الوغد ! ما انت الا نذل حقير
في شخصه كذاب منافق في كل طرقة!! لقد اتعست مخلوقة مسكينة واشقيت
حياتها ولطخت سمعة عائلة لم تعرف في الماضى الا الشرف شعارا
لها ، لكى تشبع شهوتك الدنيئة الحقيرة !! »

فاجاب ، مدافعا عن نفسه : « ان كنت انت او ابنتك قد عزمتما على ان
تعيشا شقيين بائسين ، فلا حيلة لي بذلك ٠٠! ولكن يمكنكما ان تكونا
سعيدين ، اذ نستطيع ان نزوج ابنتك برجل آخر ، في وقت قصير ،
وتستطيع هى في الوقت نفسه ، ان تستبقى عشيقها الى جانبها ! لانى
احتيج على انه بامكانى الاستمرار فى الاهتمام بها اهتماما حقيقيا !! »

عندئذ ثارت ثائرتى لدى سماعى هذا الاقتراح المهين ٠٠! قد يتحمل
الرجال ، احيانا ، آلام جرح بالسخ او ضرر من الاضرار ، بصبر وتجلد ،
٠٠ الا انهم يئنون ويصرخون اذا ما اصابتهم نخسة بسيطة او لسعة
حشرة صغيرة ٠٠! وهكذا اصابنا من هذا الرجل ضرر بالغ ، فتحملناه
بصبر وطول اناة . الا ان اهانت البسيطة هذه قد وخزتنى فاثارت
في راقد جاشى ، فصحت في وجهه : « اغرب عن نظرى ، ايها « الشىء »

النذل ولا تستمر على اهانتى ففى حضورك !! آه ، لو كان ابنى الباسلى
الشجاع هنا ، لما تحمل هذه الاهانة ، لكنى رجل قد هذه المرض فأعجزه
ونالت منه الشيخوخة فخارت قواه ووهنت عزيمته !!»

فقال المييد ثورنهل : « انك تضطرنى الى استعمال الكلمات
النابية والالفاظ الخشنة خلافا لما عزمتم الامر عليه . . . لقد بينت لك
ما يمكن ان يرمى من صداقتى . . . اما الان فترانى اقدم لك ما يمكن
اعتباره نتائج غضبى عليك !! لقد اعطيت احد الدائنين صكا اقرارا
منك بالمال الذى استقرضته منه ، وقد دفعت انا الدين الذى عليك .
وبالتالى تحول الصك الى . . . وها هو الان فى حوزتى ! . . . لذلك ،
اعتبرك مدينا لى ! . . . فاذا كنت عاجزا عن دفع المبلغ الذى عليك ، فسأمر
بالقائك فى غياهب السجون ! . . . هذا ، وانك مدينا لى ايضا ، باجرة البيت ،
فان لم تدفع لى هذا ايضا ، فستصادر جميع مواشيك وامتعك ! . . . ومع
ذلك ، اود ان اؤدى لك ولايتك خدمة بدعوتكما لحضور حفلة زفافي . . .
وهذه الدعوة ليست منى فقط ، بل من الانسة اربلا الفاتنة بالذات ! . . .
واخيرا ، ارجو ان لا ترفضنا دعوتنا !»

فاجبته : « اسمعنى ، ايها السيد ثورنهل ، للمرة الاخيرة ، واصغ الى
كلامى ، ان زواجك بغير ابنتى ، امر لا ارض عنه ولنى اوافق عليه ابدا !
وسواء أأجلستنى صداقتك على العرش ، او هوى بى غضبك الى
الحضيض ، فكلاهما محقر عسى ومردول ! لا ترجون صداقتى بعد
الان ! اذهب واقتنى ما متحك اياه القدر من جمال و ثراء وصحة وسرورا
. . . اذهب و اتركنى للعوز والعار والمرض والحزن ! . . . ولكن مهما
تذلللت ، فان قلبى قمين بالحفاظ على عزته وكرامته ! . . . ومع انك
نلت الصفح منى ، فان اذدرائى بك سيلاحقك ابد الدهر ! . . . »

فقال : « ستلمس مغبة هذه الوقاحة ، وسترى قريبا من منا اجدر بالازدراء
والاحتقار : انت ام انا !! » قال هذائم استدار على عقبه ومضى . .

لم يتهدنا السيد ثورنهل عبثا ، اذ ما كاد يصبح اليوم التالى ، حتى
وأينا وكيل املاكه يأتى الينا ويطلب اجرة البيت السنوية لانها لم تكن
تدفع كل شهر بل كل سنة ، . . . وكنتييجة لعجزى عن الدفع ، فقد استاق
الوكيل قطع الماشية وعرضه للبيع فى السوق فبيع بنصف ثمنه ! . .
وفي اثناء الليلة التالية اثلجتنا السماء كثيرا ، فعلم ابنى فى صباح
اليوم التالى على ازالة الثلوج المتراكمة ، ليشق الطريق الى بيتنا وما

مر طويل وقت على انهماكه في هذا العمل ، حتى هروا الينا ، ممتقع الوجه ، ليخبرنا بان رجلين غريبين - وقد عرف انهما موظفين في الدائرة العدلية - قادمين الينا !!

وما كاد ينهي كلامه ، حتى دخلنا اليها ، واقتربا من الفراش الذي كنت ممدا عليه ، واخبراني بالمهمة التي كلفا بها ، ثم اعتبراني سجينهما ، وامراني بالاستعداد للذهاب معهما الى السجن الواقع على بعد احدى عشر ميلا من بيتنا !!

فقلت لهما : « ايها الصديقان ، ان الجو الذي جئتماني فيه للذهاب معكما الى السجن رديء للغاية !! » وان ذراعي الواحدة مصابة بحرق بالغ مما سبب لي حمى طفيفة او ارتفاع في درجة الحرارة عندي !! وليس عندي من الثياب ما يكفي لوقايتي من البرد واني لاضعف من ان استطيع السير معكما بعيدا على هذه الثلوج الكثيفة !! ولكن ، ان لم يكن للامر بد ...

ثم التفت الى زوجتي واولادي ، وامرتهم جميعا ، بان يجمعوا ما بقى لنا من الاشياء والامثلة القليلة ، وان يتهيأوا لترك هذا المكان في الحال !

- ٢٣ -

سرنا الى الامام سيرا وثيدا لانني كنت ضعيفا منهوكا ، وقد هدنى المرض ، واوهنتني الشيخوخة ، فلم استطيع المشي سريعا . اما اوليفيا ، فقد اضعفتها حمى كانت قد انتابتها سحابة ايام ليست قليلة ، فاقضت مضجعها وذاد عنها النوم ليالى عديدة ، فتكرم احد الموظفين واركبها على حصانه . وكان ابني موسى ممسكا بيد احد ولدى الصغيرين ، والام ممسكة بيد الاخر ، بينما سرت انماستندا الى ذراع ابنتي الصغرى .

كنا على مسافة ميلين من مسكننا ، لما رأينا جمعا من الناس يتراكمون ويلغطون ورائنا ، وكان عددهم يربو على الخمسين من سكان القرى ، الذين اعتادوا حضور الصلاة صباح كل احد في الكنيسة التي كنت اعظمهم فيها ! ثم هجموا على موظفي العدلية واشيعوها ضربا وسبا واقسموا ان لا يسمحوا لقسيسهم بالذهاب معهما الى السجن ! وكانوا على وشك ان يعاملوهما معاملة قاسية جدا ! والحق ان الامر كان سينتهي بالموظفين

الى قتلها معا ! لولا توسطى بين هذا الجمهور الساخط ، حتى انقذتهما !
فصرخت بهم :

« ما هذا ايها الاصدقاء ؟! هل بهذا تظهرون محبتكم لى ؟ اهذه هى الطريقة
التي تبذرون فيها طاعتكم لوصاىى وتعاليمى التي تضمنتها مواعظى
لكم ؟! اتريدون ان تعارضوا وتقاوموا مجرى العدالة والقضاء فتجلبوا بالمار
على وعلى انفسكم ؟! »

عندئذ ، نلنموا على فعلتهم ، فترقرقت الدموع فى عيونهم وتقدموا
الى واحدا واحدا وودعوني ، فصافحتهم جميعا بكل حنو وباركتهم ..

وصلنا البلدة قبل حلول الليل ببضع ساعات ، فنزلنا فى فندق ، ثم
تناولنا العشاء بابتهاجنا المعهود ! وبعد ان حيزت لهم مخادع لائقة
بهم ، وآووا الى فراشهم عندئذ ذهبت الى السجن ، وكان هذا مؤلف من
طابق واحد كبير ، عززت نوافذه بقضبان حديدية متينة ، وبلطت ارضه
الحجارة ٠٠٠ علاوة على ذلك ، فقد كان لكل سجين غرفة صغيرة منعزلة
عن سائر الغرف ، وهى بشكلها اقرب الى صومعة منها الى غرفة !!

عند دخولى السجن ، لم اكن انتظر ان اسمع سوى النحيب والبكاء
والعويل واصوات البؤس على اختلاف اشكالها والوانها ! لكن الامر كان
على العكس تماما ! فقد كان السجناء يحاولون نسيان تعاستهم وشقائهم
الضحك والمرح !! لقد كان الحال ، حقا ، عكس ما كنت اتوقع !!

فقلت لنفسي : « من اين لهؤلاء الاثمين هذه البهجة وهذا السرور ؟؟
فهل يعقل ان اخافهم فاستسلم للحزن والشقاء ؟! انى اشعر برهبة الحبس
كما يشعرون تماما ، بل ان هنالك من الاسباب ما يجعلنى اهنأ بالا واسعد
حالا منهم جميعا ! »

لذلك ، اجتهدت ان اكون فرحاسرورا .. لكن انى للفرح ان يستجيب
لهذا الجهد والسعى ؟!

واذ كنت قابعا منزويا فى زاوية من زوايا السجن ، مكتئبا ، حزينا ،
جاءنى احد الزملاء السجناء وجلس بجانبى ، ثم شرع يتحدث ..

من العادات المألوفة التى درجت عليها المباشرة بالحديث مع اى انسان يرغب
فيه .. وهذه بالطبع ، عادة حكيمة ، يقبلها العقل ويسلم بها ، لانه اذا
كان حديث جليسى جيدا ، افيد منه ، واذا كان سيئا ، يفيد هو من

حديثي .. وقد رأيت هذا الشخص القابع بجانبى مملوءا فهما وادراكا :
وسألتني ان كنت زودت نفسى بفراش اناام عليه .. فاجبته سلبا ..

فقال : « ان هذا من قبيل سوء الحظ ، لانهم لا يعطونك شيئا ، هنا ،
تنام عليه ، سوى قليل من القشور والبرسيم !! فضلا عن ذلك ، فبان
غرفتك واسعة وباردة .. لذلك ، يسرونى ان اعيرك قسما من ملاحف
فراشى ، لانه يبدو لى انك رجل شريف ، كريم النفس .. كما كنت انا فسي
سألف الايام !! »

فشكرته على ذلك ، مقتبسا بيتا من الشعر لاحد شعراء الاغريق ، مؤداه ،
ان العالم لا يمكن ان يكون محزنـا حقا ، اذا استطاع الانسان ان يجد
صديقا له .. قلت هذا ليعلم بأنى من رجال العلم والادب .

فقال محدثي : « تتكلم عن العالم ، يا سيدى ، اليس كذلك ؟ .. ان
العالم قد شاخ ، الا ان خلقه بقى سراغامضا ، استعصى حله على الفلاسفة
في كل عصر وجيل .. » وتابـع محدثي كلامه مقتبسا روائع الفكر
لبعض المفكرين الاغريق واللاتين القدماء ليدعم بها اراؤه بهذا الخصوص ..

فقطعت عليه الحديث قائلا : « عفو ان قطعت عليك كلاما مشوقا ، كهذا ،
عشوبا بالعلم والمعرفة ، لا لاني اعارض اراؤك ، ولكن لاقول لك انى قد سمعت
هذا الكلام قبل الان !! ألم أشرف ، قبل الان ، برؤيتك في سوق ويلبردج
العامة ؟ .. وليس اسمك الكريم افرام جنكنسون ؟ اظن انك تتذكرنى
جيـدا - الدكتور برمرورز ، الذى اشتريت منه حصانا ! .. »

عندئذ ، تذكرنى في الحال ، لان ظلمة المكان حالت دون رؤيته لقسمات
وجهى بوضوح وجلاء .. فقال :

« نعم ، يا سيدى ، اتذكرك جيـدا .. لقد اشتريت حصانا منك ، ولكن
نسيت ان ادفع لك ثمنه .. انى لشديد الاسف ، يا سيدى ، على
مخاتلتك انت وى انسان اخر ! »

قال ذلك ثم عرض على ذراعيه المكبنتين بالسلاسل ، ثم اردف :
انظر .. ! انظر ماذا جنت على حيلى ومخاتلاتى ! .. » فقلت له : « حسنا ،
يا سيدى ، ان اللطف الذى اظهرته فى مساعدتى ، سيكافأ فى الحال .. »
وسأسعى قصارى جهدى ان اقمـع السيد فلامبورو باستقاط دعواه ، او
على الاقل ، بأن لا يؤدى شهادة عنيفة ضدك عندما يقف كشاهد امام

المحكمة .. اما بشأن الشهادة التى ساؤديها ، اذا ما استدعيت للشهادة ، فلا ارى داعيا لان تخاف منها !» .

حينئذ صرخ كمن وجد كنزا : « سأقدم لك اكثر من نصف ملاحفى ، وسأجتهد ان اكون صديقك في السجن واعتقد بان لى بعض النفوذ هنا !» .
توقفنا هنا عن الحديث لمحجى السجن ، لكى ينادى السجناء - كل باسمه - او ليوصد ابواب غرفهم .. فجاءنى رجل حامل حزمة كبيرة من القش وقادنى في ممر ضيق يودى الى غرفة صغيرة مبلطة بالحجارة ، ورمى بالحزمة في احدى زواياها ، حيث فرشت القش لاجل منه فراشا اناام عليه ! ..

- ٢٦ -

استيقظت صباح اليوم التالى على اصوات زوجتى واولادى ، تنهادرى وديعة في مسمعى ، فرأيتهم في غرفتى جالسين بالقرب من فراشى ، وكانت عيونهم مغرورة بالدموع ! .. فوبختهم ، بلطف ، على حزنهم مؤكدا لهم انى صرفت ليلتى في نومة هادئة وادعة لذينة . لم اذق طعمها من قبل ! ثم سألت عن اوليفيا ، لانها لم تكن بينهم ، فاخبرونى بان مزيدا من الحمى قد عاودها من جراء مشقات اليوم السابق واتعابه المرهقة .. فرؤى ان من الخير لها ان تلزم الفراش . عندئذ ارسلت ابنى موسى لتدبير غرفة او غرفتين مجاورتين للسجن ، لاسكان العائلة فيهما .

بعد ان وفق ابنى الى ذلك ، اخترت لكل فرد من افراد العائلة ، من الاعمال ما يستطيع عمله .. فطلبت الى صوفيا ان تقوم بمراقبة صحته اختها والاهتمام بها ، والى زوجتى ان تقوم على خدمتى ، والى الولدين الصغيرين ان يقرأ لى .. ثم التفت الى موسى وقلت له : « اما انت يا بنى ، فستعملنا بما تستطيع يداك ان تقوم به من اعمال ، فعليك ان تبحث هذا المساء ، عن عمل ، لانه اصبحت لزاما عليك ان تحمل الينا كل مساء ما يوفيك الله الى كسبه من المال !» .

بعد ذلك ، تدرجت الى السجن العام حيث الهواء انقى والمكان ارحب ، لكننى لم امكث طويلا فيه ، لان السجناء كانوا يتصرفهم اقرب الى البهائم الشرسة منهم الى البشر ، فقد كان الجو مشحونا بالشتم .. والصراخ

الوحش الابد .. والالفاظ النابية القذرة !! فما لبثت ان عدت ادراجى الى حجرتى متأثرا بهذا التصرف الوحش والسلوك الجنونى ! ..

جلست افكر بهؤلاء الاشقياء الذين اذ وجدوا الجنس البشرى عدوا لهم ، يسعون - دون وعى - الى جعل الله عز وجل ، عدوا ثانيا .. فشعرت انه من اوجب واجباتى ، ان احاول اصلاحهم ... فعقدت النية على العودة اليهم ثانية ، لاقدم لهم نصحي خالصا ، على الرغم من ازدراهم واستخفافهم بى !!

ولما وجدتني بينهم ، ثانية ، اطلعت السيد جنكنسون على ما عزمتم عليه من امر .. فضحك ملء شذقيه ، لكنه مع ذلك ، ابلغ الخبر للجميع ، فتقبل السجنا اقتراحى هذا بمنتهى الضحك والفكاهة ، كانه في نظرهم ، لسون جديد من الوان اللهو والتسلية !!

وعليه ، تلوت - جهرا - على مسامعهم ، جزءا من «القداس الدينى» ثم القيت نظرى عليهم فوجدتهم جدمرحين : - كان البعض منهم يتفوه بأقبح الالفاظ ، وآخرون يئنون أنات «التوبة» بكثير من الهزء والسخرية ، وآخرون يتغامزون او يسعلون او يخرجون اصواتا اخرى مزعجة ، مما تجود عليهم حناجرهم ! - كانوا يتفننون في اختراع الحيل لمواصلة ضحكهم وسخريتهم ، مع ذلك ، لم اتوقف عن القراءة .. !

وبعد تلاوة كلمات الله المقدسة ، شرعت في القاء عظتى ، وفيما يلى جزء منها : -

« يؤسفنى ان اسمعكم تنطقون «بلغة» مستهجنة دنسة ، كأنكم تدعون ابليس ، وتتكلمون بوقاحة وامتهان عن الله جل جلاله ! لماذا تطلبون ابليس وتخطبون وده ، مع انه أساء معاملتكم كما ترون ؟ ! لم يهبكم هنا سوى ما يملأ افواهكم اقساما وحلفانا وبطون فارغة ! لقد علمنا الدين والايمان .. انه لن يقدم لكم شيئا في حياتكم الثانية بعد الموت ! فاذا اساء احد البشر معاملتنا ، تركناه الى غيره بطبيعة الحال ... أفلا ترون مناسبا وجديرا بالاهتمام ان نجرب معاملة « سيد » آخر ، يقدم أجمل المواعيد للذين يتوبون عن اثمهم ويرجعون اليه تعالى ؟ ! »

عندما انهيت هذه الكلمة ، تقسم الى بعضهم وصافحونى قائلين ، انى رجل شريف النفس شجاع ، ورغبوا فى زيادة تعرفهم بى ، فوعدتهم بـ بان

اعظمهم مرة اخرى ، في اليوم التالى ٠٠

عدت الى غرفتى حيث أعدت زوجتى غداء بسيطا ٠٠ وسألنا السيد جنكنسون ان كان باستطاعته ان يضيف غداءه الى غداثنا ويتناول معنا الاكل ، لانه لم يسبق له ان تعرف الى عائلتى ، فقال :

« لم ار عائلتك قبل الان ٠٠٠ ان هؤلاء الاولاد اصلح واجمل من يكونوا في مكان كهذا ٠٠٠ واظن انى ارى هنا شخصا ٠٠ مشيرا الى ابنى موسى ، »
« ٠٠ قد لحقه منى شىء من الضرر ٠٠ واحب لو انه يسامحنى ! »

ولوقت ، تذكر ابنى صوت السيد جنكنسون وملامح وجهه ، وان كان قد رآه - سابقا - متخفيا وراء هيئة رجل شيخ جليل ، في حين كان في السجن يبدو شابا في مقتبل العمر :

ثم استطرد السيد جنكنسون الى القول : « كان رأسى في ذلك الحين يعلوه شعرا مستعارا ٠٠ فقد تمرست على فن التخفى والتنكر ، بحيث استطيع ان اظهر شابا في السابعة عشرة من عمره ، او شيخا في السبعين عندئذ شد موسى على يده ، وبابتسامة مشرقة ، صفح عنه وغفر له ذنبه ٠٠ »

ثم اختتم السيد جنكنسون حديثه قائلا : « لقد خدعت رجلا اكثر منك حكمه وعلمنا ومعرفة ٠٠٠ ولكن ، على الرغم من دقة حيلى وكثرتها ، كان «الاغبياء» كثيرى العدد ، فالقوا القبض على فى النهاية ! » ثم التفت الى وقال : « ٠٠ على كل حال اطلعنى على «قضيتك وقل لى ما الذى جاء بك الى هنا ، لعلى استطيع ان اخلصك انت وامثالك من الاصدقاء ، وان كنت انا اقل براعة من ان استطيع ترك السجن ! »

فحكيت له قصتى بكاملها ٠٠ ولما سمعها توقف بضع دقائق ، ثم ضرب جبينه بكف يده ، كأن فكرة ما خطر له ! فوقف مستأذنا بالانصراف ، وهو يقول :

« سارى ما يمكن عمله بهيئته الخصوص ! »

— ٢٥ —

امضيت اربعة عشر يوما في السجن ، لم تزرنى خلالها ابنتى اوليفيا مرة واحدة وقد برح بى الشوق الى رؤيتها ، فاعربت لزوجتى عن رغبتي

— ٩١ —

في ذلك ٠٠٠ وفي صبيحة اليوم التالى، دخلت ابنتى البائسة المسكيننة ،
غرفتى مستندة الى ذراع اختها (صوفيا) . ان التغيير الذى لحته في
قسمات وجهها قد اغرقنى فى ذهول شديد ! كان وجهها اشبه
بوجوه الاموات ، وصديغها قد لصق بعظام رأسها ، وتقلصت بشرة جبينها
وعلت وجنتيها صفرة الموت !

فصرخت قائلاً : «انى جد سعيد برويتك ، ايتها العزيزة ، لكن مالى
اراك خائنة النفس مغتمة هكذا ؟! أظن ان محبتك لى ، اعظم جداً من ان
تسمحى لظلمة اليأس ان تتناهبك ، او لخيبة الامل ان تفترسك وتبمر
حياتك ، ذلك لان حياتك عزيزة على ، كحياتى . فقرنى
عينا وطيبى نفسا ، يا ابنتى ، فلعل ربنا الكريم يرينا اياما اسعد واهناً !»

فاجابت : «لقد كنت لى ، يا سيدى ، وما زلت اكرم الناس والطفهم ، لكننى
لن اعيش لاشارككم في السعادة التى تعدنا بها . ان السعادة ليس لى
فيها نصيب بعد على الارض ! ان نفسى تحن وتشتاق الى الخلاص من هذا
العالم ، الذى لم المس فيه سوى الالم والشقاء ! ليتك تدعن للسيد
ثورنهل ، يا سيدى ، فلعل هذا يحمله على اطلاق سراحك من السجن .
- وعندما اراك حراً طليقا ، عندئذ تخرج روحى من جنبى هادئة راضية
مطمئنة !!»

فقلت لها : «مالك ولهذا الكلام ، يا ولدى ، ؟! انى لا اشعر بالنعاسة فى
هذا المكان ، وما دمت حية على الارض ، لن ارضى ، عن زواجه بغيرك ،
كى لا ادعه يجعلك فريسة البؤس والعذاب !!»

بعد ذهاب ابنتى ، بدأ السيد جنكنسون يناقشنى في الموضوع نفسه
فقال : ان صلابة رأيى يجب ان لا تحول دون الاذعان للسيد ثورنهل ، ان كان
في ذلك حريتى واطلاق سراحى . ثم استطرد قائلاً : «ان رفضك الاذعان
يا سيدى ، ليس قائماً على متانة الخلق او استقامة القلب ، لكنه
بالاخرى ، على عناد وتشبث بالرأى جنونى ! ان عائلتك يجب ان لا تكون
كبش المحرقة من اجل ولد واحد فقط ! (يقصد اوليفيا) هذا ، وانك لا تستطيع
ان تحول دون زواج السيد ثورنهل بالانسة ويلموت ، لكنك تستطيع
ان تصير زواجهما الى شقاء ابدى !!»

فاجبته : «ما دامت ابنتى على قيد الحياة ، يا سيدى ، لن يكون لى
زواج اخر بغيرها ، زواجا شرعياً في نظرى ، الا اذا انتقلت الى الابدية !
عندئذ ، لن احاول ان اقف حائلاً بينه وبين زواجه الثانى !» .

- «اذا كنت تأبى الاذعان للسيد ثورنهل ، آمل ان لا يكون تمت اعراض على اطلاع السروليام ثورنهل على قضيتك .. لانه رجل مشهور بعدالته وطيبة قلبه ، وان الشهرة التى له في المملكة لاجل صلاحه وكرم اخلاقه ، قد بلغت غاية رفعتها ! وليس هنالك من يضاهيه او يدانيه شهرة في عدالته ! اشير عليك ان تبعث اليه بخطاب تطلعه فيه على سلوك ابن اخيه .. ولا ريب ، انه لن يتأخر في الرد عليك اكثر من ثلاثة ايام !»

فشكرته على اقتراحه ، وعزمت على العمل حسب اشارته .

فقلت له : «سأعمل حسب اقتراحك هذا ، ولكن ليس عندي ورق للكتابة ، فهل باستطاعتك الحصول على القليل منه ؟»

فامتثل لطلبي ، وزودنى بالورق اللازم ، ثم جلست واخذت اكتب ..

كنت في حالة من القلق المذيب طيلة الايام التالية ، والتساؤل المير عن الكيفية التى قبلت بها رسالتى ! .. لقد مضى اليوم الثالث ، فالرابع ، لكننى لم اتلق اى رد عنها ! هذا ، وان ضيق المكان الذى انا فيه ، والهواء الفاسد ، اخذت اثارهما تظهر واضحة في صحتى ، وكانت ذراعى (التسى اصيبت بالحروق) تنتقل من سىء الى اسوأ ، وكانت صحة ابنتى اوليفيا ، تتدهور نحو الحضيض ، يوم بعد يوم ، وكان كل خبر سىء عنها يزيد في خوفي ورعبى ! .. وفي صباح اليوم الخامس من تاريخ كتابتى ، هالنى خبر ، مؤداه ان اوليفيا اصبحت فاقدة النطق ، لا تحر جوابا ولا تنطق بكلمة ! فعزاني اضطراب شديد ، وانا اتقلب على فراش مرضى ، ورأسى لا يستقر على وسادتى ! .. فتقتلان اكون قريبا من ولدى ، لاعزيها وارشدتها واتقبل منها تمنياتهما الاخيرة !! .

ثم جاءنى خبر يقول انها تلفظ النفس الاخير ..

وبعد برهة من الزمن ، جاءنى زميلى السجين ، السيد جنكسون يحمل الى الخبر الاخير : - ماتت !

وفي صبيحة اليوم التالى ، عاد الى فوجدنى مع ولدى الصغيرين ، او رفيقى الوحيدين ، يشرشران ويكثران الكلام فى ترديد وتخليط غير مفهوم ويحاولان تعزيتى ومواساتى بحديثهما البسيط البرى !

فقطع السيد جنكسون عليهما ثرثرتهما بقوله : «الان ، وقد ماتت ابنتك ، يجب عليك ان تفكر بباقي افراد العائلة وتجرب ان تخلص حياتك ، اذ اراها

تتداعى يوما بعد يوم ، من قلة التغذية الضرورية والهواء الصحى الضرورى للجسم !»

فاجبته : «لم تبق في نفسى انفة ولا كبرياء ... فالسيد ثورنهل ، قد جار على وظلمنى ، لحقنى منه كثير من الاذى ، وسلبنى شيئا ، اعتبرته اثمى واعز على نفسى من كل كنوزه ... وقد اصابت سهامه من قلبى مقتلا ، فاورثنى الكلال ، وجعلتنى اتلوى على فراش الضنى ، اتدرج نحو الهاوية ... ومع ذلك ، لا اشعر الان بالميل الى الثأر من ظالمى ، وانى راغب في الرضى عن زواجه ، ان كان في اذعانى هذا ارضاء له ومبعث لسروره ... فقل له ، ان كان قد اصابه منى شيء من الاذى او الضرر ، فانى لشديد الاسف على ذلك !»

عندئذ امسك القلم وكتب ما كنت قد قلته ، وذيلته بتوقيعى ، ثم بعثنا بالرسالة الى السيد ثورنهل ، مع ابنى موسى ...

ما غاب ابنى موسى عنا قرابة ست ساعات ، حتى عاد اليينا ، حاملا جوابا شفويا ، يقول : «ان الاعتذار قد جاء متأخرا ، اذ لم يعد ضروريا وقد سمعت بالرسالة التى بعثتم بها الى عمى السر وليام ، وبالازدراء الذى قبولت به ! ان كل طلب او استعطاف يرفع في المستقبل يجب ان يقبل الى وكيلى (المحامى) لا الى بالذات ... ان للسيدتين - اوليفيا وصوفيا - مكانا رفيعا في نظرى ، وحبذا لوانهما تقومان مقام اى رسول لما اكنه لهما من احترام ومنزلة رفيعة فى قلبى !»

فالتفت عندئذ الى السيد جنكنسون وقلت : «حسنا ، يا سيدى ، انك ترى الان ، الى اى عمق من السفالة والندالة قد نزل هذا الرجل ، الذى يظلمنى ويحاول اذلالى !»

ما كدت انهى كلامى حتى ظهرت زوجتى وقد ارتسمت نظرات الفزع على وجهها وصرخت :

«صوفيا ! عزيزتى صوفيا ذهبت ! لقد اختطفها بعض الاوباش !»

بينما كانت زوجتى وابنتى تتنزهان ، اقتربت منهما عربة ووقفت ثم ترجل منها احدهم وطوق خصر صوفيا بذراعه وارغمها على دخول العربة معه ، وامر الحوذى ان يتابع سيره ، وما عتمت العربة ان غابت عن الانظار !

فصحت عندئذ : « الان قد كملت بلاياى وطمت تعاستى وربت ! لا شيء في الدنيا يستطيع ان يشقىنى وان يعذبنى اكثر من هذا !! ماذا اقول ؟ ! من كان يظن ان ابنتى تذهب انى هكذا ؟ ! ولا تبق لى واحدة منهما ؟ ! يا له من وحش ؟ ! يأخذ منى ابنتى ، اقرب الناس الى قلبى !! انها كالملاك في سمائها ، وملامحها وجمالها ؟ ! وكالملاك ايضا في عقلها وذكائها ! والان لم يبق لى واحدة منهما !

فقالت زوجتى : « واسفاه ايها الزوج العزيز ! يبدو لى انك بحاجة الى العزاء والسلوان اكثر منى ! باستطاعتى ان اتحمل هذا واكثر منه لو اراك ثابت الجأش ، ساكن البال ! يمكنهم ان يأخذوا كل اولادى وكل ما فى العالم ، شريطة ان يبقوك لى ! »

وحاول موسى ان يخفف من وطأة الواقع المؤلم ، فقال : « اى والسنى العزيز ، ارجو ان يكون هنالك ما يدخل الفرح الى قلبك ولو قليلا تسلمت اليوم رسالة من اخى جورج يقول لى فيها انه في غاية السعادة والسرور . وان فرقته لم تغادر البلاد بعد ، ويحتمل ان يرفع الى مرتبة اعلى لما له من الاعتبار والمحبة في نفس قائد فرقته الذى وعده بهذه الترقية في وقت قريب ! »

فقلت : « رعاك الله يا بنى ! واحاطك بكل اسباب الهناء والسعادة حتى تتمكن من اعالة امك المترملة ، بعهدماتى ، وعسى الله تعالى ان يراف بهذين الطفلين اللذين سيصبحان يتيمى الاب عندما يغيب الثرى ابيهما في جوفه ! .. وادعوه تعالى ان يحفظ لهما برائتهما وسداجتهما سالتين من كل تجربة ، وان يكون مرشدهما في سبيل الحق والخير والاستقامة ! »

ما كنت انهى دعائى هذا ، حتى سمعت صرخة مدوية في اسفل السجن ، ما لبثت ان تلاشت ، ولكن سرعان ما دوى في اذنى قعقة اصفاد فى الممر المؤدى الى غرفتى ! ثم دخل السجن ، قابضا على رجل ملوث بالدماء مصاب بالجروح ، وقد كبلت ذراعا ورجليه بالاصفاد ! فاشفقت على هذا اليائس عندما دنا منى ، ولكن ... ما كان اشد ذعرا لما عرفت انه لم يكن الا ابنى جورج !

فصرخت : « من اوى ؟ ! ابنى وحبيبي جورج ؟ ! اراه مجروحا مصفدا ! هل في هذا سعادتك وهل هكذا تعود الى ؟ ! ليت هذا المنظر يكسر قلبى وينزلنى الى الهاوية !! »

فاجاب ابني قائلا : « تشجع يسابيت وتشدد ! .. انى استحق العذاب
فليحكموا على بالموت ! فلينتزعوا روحى من بين جنبى ! » فقلت له :
« كلا يا بنى ، يجب ان لا تموت ابدا » وانى واثق من انك لم ترتكب جرما
يستحق عقابا شديدا كهذا ؟

— « اخشى ، يا سيدى ، من ان ذنبى لا يغتفر ! فقد تسلمت رسالة من
والدتى ، تدعونى فيها الى النار والانتقام من اجل العار الذى وصم عائلتنا
... وللوقت استجبت لندائهم وانطلقت سريعا لاقاب من خان عهدنا
وغدر بشرفنا ... فبعثت اليه برسالة ادعوه فيها للمبارزة ، فلم يأت هو
نفسه ، بل ارسل اربعة من خدمه لالقاء القبض على ! جرحت اولهم ،
الذى حمل على مستميتا وليس ثمت امل في شفائه ! .. ثم هاجمنى
الثلاثة الآخرون ، فقاتلت قتال القانط اليائس من الانتصار ! واخيرا
انتصروا على ، واخذت اسيرا . وقصدصم الجبان على اقامة دعوى على امام
القضاء ! هذا وان براهين الانبات على جرمى ، لا يمكن دحضها او نكرانها
... لذلك ، ارى ان ليس ثمت امل في العفو ! »

— ٢٦ —

دخل السجنا غرفتى وقال : « ارجوان لا يسخطك ما انا فاعله ، لانى لا
اعمل الا واجبى ، والواجب يحتم على نقل ابنك الى غرفة اكثر مناعة ،
وسيسمح له بزيارتك صباح غد ! »

فامسكت بيد ابني وودعته ، مصحوبا بالامن والسلامة ، ونبهته الى
ضرورة التفكير بالواجب العظيم الذى ينتظره ، واجب استقبال مصيره
برباطة جأش وقلب جرىء ! ..

ثم انكشيت في فراشى مرة اخرى ، وجلس احد ولدى الصغيرين الى
جانب السرير يقرأ لى .. وبعده قليل ، ولج غرتى السيد جنكنسون ،
وقال لى انهم تلقوا خبرا عن ابنتى صوفيا ، يقول انها شوهدت منذ
ساعتين بصحبة رجل غريب ، وقد توقفا في قرية مجاورة لتناول بعض
المرطبات ، ويبدو انهما عائدان الى البلدة ! ..

ما كاد السيد جنكنسون ينهى كلامه حتى عاد السجان مسرعا وانبأنى
ان ابنتى قد عثر عليها ! ثم جاءنى موسى مهرولا ، وقال ان اخته فى

الطابق السفلى وانها قادمة الينا برفقة السيد برتشل ، صديقنا القديم ! . .
دخلت ابنتى صوفيا وهرعت الى بسرعة يغمرها فيض من الفرح واللذة
لتقبيلى ! . .

ثم صاحبت بجلء فيها : «ها هو ذا يا والدى ، ها هو ذا الرجل الباسل
الذى اصبحت انا مدينة له باخلاصى ، والى قلبه الجرى وعصاه القوية
مدينة انا بسعادتى واستعادة امنى وسلامى !!»

ثم قاطعها السيد برتشل بقبلته (لان سروره كان اعظم من سرورها
هى) فتوقفت عن الكلام . . .

فتنهدت : «اه ، ايها السيد برتشل ! ما احقر هذا المكان الذى تجدنى فيه
الان ! وشتان بينه وبين ذاك الذى رأيتنا فيه اخر مرة ! لقد كنت لينا
صديقا مخلصا . . لقد احسننا بالاخطاء التى اقترفناها بالنسبة
لك بعد تلك المعاملة السيئة التى عوملت بها ، وانى لاشعر بالخجل
الشديد ، عندما اشاهدك امامى ، مع ذلك ، ارجو انك تسدل على ستار
عفوك ، لان رجلا سافلا حقيرا قدمكر بى ، بابتسامة «الصداقعة»
المزيفة التى كانت «تلبس» وجهه دوما ، وتستتر حقيقة قسمااته ، كما
يعلو القناع المطلق الوجه ليخفى ملامحه الحقيقية ! . . وهكذا كان
هذا الرجل ، عدوا لدودا يعمل على اذلالى وتقويض بنيان حياتى !»

فقال السيد برتشل : «يستحيل على ان اصفح عنك ، - لانك لم
تأت شيئا يستوجب الصفح . . . لقد شعرت بالخدعة التى ختلتم بها ،
والضلال الذى استبد بكم ، لىكنى كنت آتئذ ، اضع فمى ان استطيع
اصلاح ذات البين ، فما كان منى الا ان اسفقت لكم فقط ، ورثيت لحالكما !»
فقلت لصوفيا : «خبرينى ، يا بنيتى عن كيفية نجاتك ومن هم الاوباش
الذين اختطفوك ؟؟»

فقلت : «انى بالحقيقة ، اجهل الوغد الذى اختطفنى وهرب بى ، لقد
حاول ان يمنعنى من الصراخ والاستغاثة بشتى الطرق ، وكان قد ثبت ستارا
خشنا من القماش السميك ، فوق نافذة العربة ، فمزقته بيلى شر
ممزق ! واذ ذاك ، لمحت عيناى عن بعد . . ومن تظننى لمحت الا صديقك
القديم ، السيد برتشل ؟! رأيت ه ماشيا بخفته المعهودة ، حاملا عصا
غليظة - العصا التى طالما اضحكنا فى الماضى ! - فناديت به باسمه ، وتوسلت

اليه ان ينجدنى عندئذ ، صرخ صوتا عاليا دوى في تلك الارحاء ، أمرا
حوذى العربية ان يقف ، لكنه لم يلتفت الى صوته ولم يعره اى انتباه ،
بل ضاعف سرعة العربية ! ثم رأيت السيد برتشل راكضا بمحاذاة الخيل
وبضربة واحدة استطاع ان يصرع الحوذى ويطرحه ارضا ! وفي الحال ،
توقف الحصانان من تلقاء نفسيهما ، ثم خرج الوغد من داخل العربية ،
ممتشقا حسامه ، وصرخ في وجه السيد برتشل قائلا : « انك تعرض
نفسك لخطر عظيم ، يا سيدي وستكون حياتك معرضة لخطر اعظم ان
كنت لا تنسحب على التو !! » ثم حمل عليه السيد برتشل وحطم سيفه
تحطيمًا ، وطارده مسافة ربع ميل ، لكنه نجا بنفسه ! وبعد قليل ، عاد
السيد برتشل الى وقد كسبت وجهه بسمه الانتصار ! وفي هذه الاثناء ،
كان الحوذى يحاول النجاة بالهرب ايضا ، لكن السيد برتشل امره ، تحت
طائلة الموت ، ان يركبنا العربية ويعود بنا الى البلدة !»

حينئذ « صرخت : « اهلا بوليدى ، واهلا بك ايها المنقذ الشهم ! ان المكان
وان كان حقيرا فان قلوبنا مستعدة ان تقبلك فيها . . . والان وقد
انقذت ابنتى ، ايها السيد برتشل فانى اتيك جزائك بتقديمها لك ان
كنت تقبلها منى على هذا الاعتبار . . . فهى لك ، ان كنت تتنازل فتصاهر
عائلة فقيرة جدا كعائلتى . . . انما ايجب الحصول على مرضاتها ، وانما
واثق من حبها لك . . . واسمح لى ان اصارحك القول ، يا سيدي ، ان الكنز
الذى اقدمه لك ، ليس كنزا يسيرا !»

فاجاب السيد برتشل قائلا : « اظن انك ادري باحوالى ، وتعلم بانى عاجز
عن اعالتها كما تستحق !»

فقلت : « ان كان اعترافك هذا دليلا على انك راغب عن تقديمتى ، فما على
الا الاخلاص الى الصمت . . . انى لا اعرف رجلا اجدر منك بها . . . ولو
تقدم الوف من الرجال يطلبون يدها للتزوج بها ، فان اختيارى لن يقع
الا على السيد برتشل ! الرجل الشهم المقدام !»

لم يجب السيد برتشل على كلامى هذا ، بل لزم الصمت . وصمته
دليل على الرفض . وقبل ان يجيبنى على عرضى ، ارسل امرا الى الفندق
المجاور لاحضار احسن الوان الطعام للغداء التى يمكن توفرها ، استجابة
لهذا الطلب المستعجل ، مع اثني عشر زجاجة من اجود الخمور والنهار
وللوقت جائنا احد نادل الفندق ، ورتب المائدة وصف زجاجات الخمر
عليها واحضر لونين من الوان الطعام المطبوخ جيدا !!

لم تدر ابنتى بعد ، بالحالة الخطرة التى آل اليها اخوها جورج المسكين ، وقد كنا ابعدهما ما نكون عن اعلامهما بذلك ، خشية «الترطيب» من حرارة بهجتها وفرحتها ، ولكن خاب ظننى وطاش سهمى ، اذ عينا حاولت ان اكسو الابتسام وجهى واتكلف الفرح ، لاننى لم اتمالك نفسى من التفكير بابنى السجين ٠٠! واخيرا اضطرت الى تعكير صفو جذلنا باطلاعهما - صوفيا والسيد برتشل - على النوائب التى انتابته ، وتساءلت ان كان بالامكان السماح له بمشاركتنا فرحنا لآخر مرة ، وطلبت ايضا قبول السيد جنكنسون لتناول الغداء معنا ، فاجابنى السجان الى طلبى ، بخضوع غريب ، لم اعده فيه سابقا !

عندما سمعت قعقة اصفاد ابنسى في الممر المؤدى الى غرفتى ، اسرعت اخته لملاقاته وفي الوقت نفسه ، سألنى السيد برتشل ، ان كان اسم ابنسى جورج ، واذا اجبته بالاجاب ، صمت ولم ينبس بكلمة !

حلما دخل ابنى الغرفة ، لاحظت انه كان يتأمل السيد برتشل ، بكثير من الدهشة والوقار ، فادرك هذا ان حقيقة شخصه قد اكتشفت ! عندئذ امر ابنى ان يتقدم ، متخذا لنفسه مقامه الطبيعى (تماما كما يتخذ الملك لنفسه تاجه ولباسه الملكى) . ولم ارقط . شيئا مهيبا جليلا ، كالهئية التى كست صديقنا السيد برتشل في هذه المناسبة ! فقال مخاطبا ابنى : «ما هذا ايها الولد الطائش ؟! اظن الجريمة نفسها ٠٠٠!»

وهنا توقف السيد برتشل عن الكلام ، اذ دخل اليينا السجان ، وقال مقاطعا ، ان شخصا بارزا من كبار القوم قد وصل بعربته ، مع عدد كبير من اتباعه وخدمه ، وانه يرسل عظيم احترامه الى السيد الجالس معنا ، ويرجوه ان يعلمه متى يمكنه استقباله؟

فاجابه صديقتنا : «مر الرجل ان ينتظر حتى يتسنى لى وقت او فرصة سانحة لقبوله ! ليس لدى فراغ من الوقت الان ، انى كثير المشاغل !»

التفت ثانية الى ابنى واستطرد قائلا : «ارى انك مرتكب نفس الجرم الذى سبق لى أن أنبتك عليه ٠٠٠ لذلك يهوى لك القانون عقابه العادل ، ولعلك تتصور ، واهما ، ان استخفافك بحياتك ، يبيح لك الاستخفاف بآرواح الناس وازهاقها !!»

فصرخت : «واسفاه ، يا سيدى ! اشفق على هذا المخلوق المسكين ، وارث لحاله ، كائنا من كان شخصك الكريم ، لان ما عمله لم يكن الا اطاعة لامر أم مفرورة

مخدوعة ! وهماك يا سيدي ، الرسالة التي بعثت بها اليه . وهي الدليل الكافي على غفلتها وعدم تبصرها ! فلعلها تخفف من وطاة جرمه !»

فتناول الرسالة وقرأها بسرعة ، ثم التفت الى وقال : « ليست الرسالة عنرا كرافيا ، لكنها تقلل من ذنبه وتحملني على الصفح عنه ! » ثم امسك بيد ابني جورج وقال له : « والان ، يا سيدي ارى ان الدهشة تملكك لبي رؤيتك اياي في هذا المكان ! ما جئت الى هنا الا لكي ارى العدل يأخذ مجراه الشرعى لرجل فاضل ، يكن له قلبي أخلص عواطف الاحترام والاعتبار ! لقد مر زمن طويل كنت فيه شاهدا متخفيا لاعمال البر والاحسان التي عملها والدك ، وطالما تمتعت في مسكنه الصغير باحترام خال من النفاق والمداينة . . . هذا ، وان الغبطة التي امدتنا بها اسباب التسلية والبهو حول موقد النار في بيته فاقت في عنصرها ، البهجة التي تتوفر حتى فى بلاطات الملوك ! . . لقد بلغ ابن اخي خبر اعتزامي المجيء الى هنا ، وعليه ، لا يمكننا ان نحكم عليه او ندينه ، قبل الفحص والاستنطاق ، لئلا نكون جائرين . . واني ، دون تفاخر او مباهاة ، اصرح بأنه لم يستطع احد ، حتى الان ، ان ينعت السر وليمام ثورنهل بالجور والاعتساف !!»

وهكذا عرفنا ان الشخص الذي قبلناه في بيتنا واکرمنا وفادته ، باعتباره شخصا ييفا ، ورفيقا مسليا ، لم يكن سوى «السر وليمام ثورنهل» الذائع الصيت ! وان السيد برتشيل المسكين ، الفقير ، كان حقا ، رجلا يملك الثروة الضخمة ، وتستمع اليه البرلمان والمجالس بالتكبير والتهليل . . .

ان زوجتى ، اذ تذكرت الفتاة السابقة ، انكشيت منه واجفست خوفا وفرقا !! لكن صوفيا ، التي كانت تحسبه ملكا لها ، قبل بضع دقائق ، ادركت البون الشاسع بين حظها وحظه ، فلم تستطع ، عندئذ الاحتفاظ بدموعها في مآقيها . .

فصرخت زوجتى ، بصوت يستدر العطف : آه ، يا سيدي ! انى لي ان احظى بعفوك وغفرانك ؟»

فاجابها : « ايها السيدة الفاضلة العزيزة ، ليس هنالك من اخصه بغضبي وسخطي ، الان ، الا ذاك الذي اربع صغيرتى المحبوبة ، صوفيا ! » ثم اردف موجه الكلام الى صوفيا : « هل تستطيعين معرفة الشخص اذا رأيته ثانية ؟»

فاجابت : « بالحقيقة ، لا أستطيع ان اقول جازمة ، من هو ... ولا أستطيع التأكد من حقيقة شخصيته بمجرد النظر الى مظهره الخارجى .. لكننى اذكر ، بكل تأكيد ، انى رأيت علامة كبيرة فوق جبينه ! »

فقاطع جنكنسون قائلا : « عفوا ، يا سيدى ، ثم التفت الى صوفيا وسألها : وهل تذكرين اذا كان شعر رأسه احمر ام لا ؟ »

فصرخت صوفيا : « نعم ! اظن ان شعره احمر ! »

ثم التفت الى السر وليام وقال « ألاحظتم ، يا سيدى المحترم ، طول ساقيه ؟ »

فاجابه السر وليام : « لا اقدر أن أتأكد من طولهما بالتمام . لكننى مقتنع بشدة سرعتهما ، لانه سبقنى بالجرى واعتقد بان الذين يستطيعون ان يفعلوا ذلك قليلون في المملكة ! »

عندئذ صاح جنكنسون : « سيدى المحترم ! انى اعرف هذا الرجل ، انه اكبر عداء في انكلترا ، واسمه تيموثى باكستر ، واعرف جيدا اين يختبئ في هذه اللحظة ، فاذا امرتم السجنان بان يسمح لرجلين بمرافقتى ، أستطيع ان أجيئكم به بعد ساعة ! »

ثم ارسل جنكنسون ، يرافقه سجانان للبحث عن باكستر .

ودخل ولداى الصغيران غرفتى ، وللوقت تسلق « بل » بذراعيه عنق السر وليام ليقبله ، فحمل الولدوهو في ثيابه الرثة واجلسه على ركبتيه ، وصرخ به :

« ايه ، بل ؟ ايها الفتى البادن ! تذكر صديقك القديم ، برتشيل ؟ وانت ، يا ذك ، ايها الفتى الكريم ، ستجدان الان انى لم انسكما ! » ثم قدم لكل منهما قطعة من الكعك كبيرة ، فالتهماهما ! مع انهما لم يكونا قط ولدين نهمين ، والسبب في ذلك ان فطورهما كان صباح ذلك اليوم « فقيرا » جدا ..

ثم جلسنا نتناول طعام الغداء .

— ٢٧ —

ما كدنا ننتهى من تناول طعام الغداء ، حتى وردت رسالة اخرى من السيد ثورنهل الى عمه ، يسأله فيها السماح له بالمثول امامه لى يبرهن له على برائته .. فاجابه السر وليام الى طلبه ..

— ١٠١ —

دخل السيد ثورنهل باسماء واتجه في الحال نحو عمه ليعاقبه ، لكن السر وليام دفعه عنه ، ناظرا اليه بأنفة وازدراء ، وقال له : « ان اكره ما اكرهه هو التظاهر الكاذب بالحب والعطف ! ان السبيل الوحيد الى قلبي هو الشرف والكرامة وعزة النفس . لكنني لا ارى هنا الا النفاق والجبن والجور . . . كيف ارى هذا الرجل المسكين ، الذي اعترفت له بصداقتك ، مظلوما هكذا ومهانا ؟! لقد اعلنت للجميع صداقتك « الحميمة » ، له ، وكمكافأة لحسن ضيافته وكرمه ، اسأت الى طهارة ابنته وجرت عليها ، ثم القيته في غياهب السجن . . »

فاجاب السيد ثورنهل : « انا لا انكر بانى ظهرت في بعض اماكن اللهو والاندية العامة ، مصحوبا بابنة هذا الرجل ، فاخنت السنة السيء تلوك الاشاعات الكاذبة وتذيع قصصا ملفقة تناقلتها الشفاه ، ومن هذه الاشاعات الكثيرة ، قولهم انى اسأت الى عفاف ابنته وطهارتها ، عندئذ ذهبت الى اييها بنفسى ، لكى اوضح له القضية على حقيقتها ، لكننى استقبلتنى بالاهانات والشتائم . . ! اما بخصوص كونه هنا في السجن ، فمحامى ووكيل املاكى يستطيعان ان يشرحا لك كل شىء ، لانى فوضت اليهما ادارة شؤون اعمالى ادارة تامة . . ! فان كان مديونالى وغير راغب في دفع ديونه او عاجزا عن ذلك ، فانى لا ارى ظلما او عدوانا في الالتجاء الى الطرق القانونية للحصول على الدراهم التى لى عليه؟ »

فاجاب السر وليام : ان كان ما قلته صحيحا ، فانى لا ارى شيئا في عمالك هذا لا يوجب الصفح والعفو - على كل حال ، كان باستطاعتك ان تكون اكثر شهامة ومروعة ! »

فاجاب السيد ثورنهل : « لا يستطيع ان ينكر شيئا مما قلته ، وهو لا يجروء رد تهمة واحدة - انى اتحداه بذلك : ويشهد خلعى على ان ما قلته حق . . ! والان وقد دلت على براءتى ، لا يسعنى الا الصفح عن هذا السيد واغضاء الطرف عن كل اساءة بدرت منه ، ماعدا واحدة - : فقد حاول ان يقلل من احترامى لك ! وهذا امر لا يستطيع الصفح عنه ابدا ! لقد بعث اليك برسالة في وقت كان فيه يتهيا ابنه لقتلى شر قتلة . . . لذلك ، حزمت امرى على ترك العدالة تسير في مجراها الطبيعى . . . وها هو نص خطاب التحدى الذى ارسله الى يدعونى لمبارزته ، فهل يستطيع نكرانه ؟! ويشهد على صحته اثنان من خلعى وثالث مجروح جرحا فيه خطر على حياته ! »

فصاحت زوجتي : « يا لك من وغد لثيم الم يكفك بعد ما انتقمتم به
لنفسك حتى تشعر ابني المسكين بوطاة عنفك وصرامتك ؟ ارجو ان
السر وليام الصالح سيحمينا ويردكيد عدونا عنا ، لان ابني برىء منه
برائة الطفل الرضيع ! » .

فاجاب الرجل الطيب : « سيدتي ، اني اريد سلامة ابنك تماما كما
تريدنيها انت . الا اننى ارى جرمه واضحا ، واذا اصر ابن اخى على
مداعته فلا شيء يمكن ان يحول دون ذلك ! »

حينئذ ، دخل الغرفة جنكنسون والسجانان ، وهما يجران رجلا مديد
القامة ، حسن الهندام !

فقال جنكنسون : « ها هوذا باكستر . »

في اللحظة التي راي فيها السيد ثورنهل السجين وجنكنسون ، اجفل
الى الورا ، واخذ الرعب منه كل مأخذ ، فكان وجهه الممتقع دليلا
واضحا على شعوره بخطورة جرمه وانحطاط اخلاقه ، فادرك - اذ ذاك -
ان سفالته ودعارته قد اكتشفتا ، وحاول الانسحاب من الغرفة ، لكن
جنكنسون ادرك ما كان يجبول في خاطره فوقف في طريق انسحابه
وصرخ به :

« الى اين ايها السيد ؟ هاها ، ولماذا علا وجهك الحياء من صديقك القديم
جنكنسون وباكستر ؟ » ان الرجال العظام ينسون اصدقائهم اما نحن ،
فلن ننساك . » ثم التفت الى السر وليام وقال : « ان اسيرنا باكستر قد
اعترف بكل شيء ، ايها المحترم ، وانه هو الذى قيل انه جرح جرحا خطرا من
قبل ابن هذا الرجل ! » ويقول ايضا ، ان السيد ثورنهل قد امره باختطاف
الانسة صوفيا ، وانه هو الذى خلع عليه هذه الشيايب الفاخرة التى عليه ،
وامده بالعربة ! » لقد رسما خطبة بارعة للكيد بالانسة صوفيا ، فتآمرا
على ان يختطف باكستر الانسة الى مكان ما امين ، حيث يتهددها ويرعبها
ثم يأتى السيد ثورنهل - كأن القدر قد ساقه اليهما صدفة - فينقذها !
وهكذا يتأتى له فرصة سانحة لاكتساب عطفها وحبها ، باعتبار انه
منقذها الاكبر . هذه هي المكيدة التى اتفقا عليها للغدر بفتاة طاهرة
بريئة ؟ »

عرف السر وليام السترة التى كانت على باكستر ، لانه كان قد
وأها سابقا على ابن اخيه ، مما ثبت الجزء الاول من الرواية . وقد ايسر

ياكسندر نفسه ، الرواية بكل تفاصيلها ، و اضاف اليها بعض التفاصيل الاخرى التى لم يخبر جنكسنون بها ٠٠ منها ان السيد ثورنهل كان قد اعرب له عن حبه للاختين في آن واحد !!

فصرخ السر وليام : « يا للسماء ! ويا له من سافل حقير ، هذا الذى كنت احتضنه وارعاه ! ثم يظهر «تعلقه» بالعدالة العامة ! فليكن له ما يريد !»

عندئذ ، توسل اليه السيد ثورنهل بكل تواضع ومذلة ، ان لا يقبل شهادة مثل هذين الحقيرين السافلين ، ضده ، وطلب استدعاء خدمه لاستنطاقهم وسماع شهاداتهم !»

فقال السر وليام : « خدمك ! انهم ليسوا خدمك بعد الان ، مع ذلك ، لنسمع ما يقولونه ، ادع الساقى»

لما دخل الساقى ، لاحظ ان قوة سيده القديمة ، قد زالت وتلاشت ! فصرخ السر وليام والعبوسة بعد منعقدة على جبينه : قل لى ، هل رأيت سيدك وهذا الرجل معا في وقت من الاوقات ؟»

فاجاب الساقى : نعم يا سيدى المحترم ، لقد رأيتهما اكثر من الف مرة ومرة ، وانه هو الرجل الذى يأتيه دوما بالسيدات !!

فصرخ جنكسنون : والان ، قل للسر وليام ان كنت تعرف شيئا عنى ! فاجاب الساقى : لا استطيع القول انى اعرف الشئ الكثير عنك ، وانما اذكر انه في الليلة التى اختطف ابنة هذا الرجل الشيخ ، كنت واحدا من الذين رافقوها الى بيتنا !»

فسأل السر وليام : « اتعنى ايها الساقى ، ان هذا الرجل هو الذى جاء بابنة الرجل الشيخ الى بيتكم ؟»

— « لا ، لم يجرى هو بها ، ان السيد ثورنهل نفسه قام بذلك ، لكنه هو الذى احضر الكاهن الذى تظاهر بعقد قرانهما !»

فاجاب جنكسنون : « هذه هى الحقيقة بعينها يا سيدى ، ولا استطيع تكرانها !»

فصاح السر وليام : « يا الهى ! ان جرمة واضح ، الان ، وضوح الشمس في رابعة النهار !» ثم التفت الى السجن وامره قائلا : « حل قيود هذا الضابط

الشباب السجين ، واطلق سراحه ، فالقاضي الذي سمع الدعوى المرفوعة على السيد جورج ، صديقي ٠٠٠٠ وسأشرح له القضية بالتفصيل ، واخذ منه امرا باطلاق سراحه في الحال !

وفي تلك اللحظة مثل امامنا في غرفتي الانسة اربلا ويلموت وابوها فقد رأيا احد ولدى الصغيرين يلعب في الشارع اثناء مرورهما من هناك ، فعلمت منه من امرى ما علمت ، لكنها لم تعلم ان السيد ثورنهل كان السبب في ذلك كله . فاعترض والدها على عدم لياقة زيارتهما لنا في السجن لكن اعتراضاته كانت عديمة التأثير ، اذ ما لبثت ان امرت ابني الصغير بأن يرشدها اليانا ! واذا رأيت السيد ثورنهل معنا ، ظننت انه قد اتى لمساعدتنا ، فالتفتت اليه وصرخت قائلة :

«حقا يا عزيزي السيد ثورنهل ، انها لقساوة منك ان تأتي الى هنا بدوني ، وان تخفي عني المصائب والارزاء التي المت بعائلة عزيزة على كل منا ٠٠٠ وانت تعرف ان سروري ببذل العون لها لا يقل قوة عن سرورك انت ٠٠ ولكن يظهر انك تسر بخدمة الناس في الخفاء ، مثل عملك السر وليم ؟»

فصاح السر وليم : ماذا تقولين ؟! أيسر بفعل الخير ؟! لا ، يا عزيزتي ، ان مسراته لا تقل عنه خسة ونذالة ! انه اللؤم بعينه ! لقد مكر بآبنة هذا الرجل المسكين ، وتآمر على اختها ورمى بابيها في غيبة السجن ، وكبسل ابنه البكر بالاصفاد ، لتجروء على تحدى من غدر بها ولوث طهارتها ! وانه ليسرني حسن حظك في النجاة من الزواج بمخلوق دنس كهذا ، فاهنيك واشاركك فرحك بحظك السعيد .»

فصاحت الفتاة الجميلة : يا السنداجتي ! كيف خدعت ٠٠؟ لقد اخبرني السيد ثورنهل ان بكر هذا الرجل ، النقيب جورج برمروز قد غادر البلاد الى امريكا ، مع عروسه !»

فرفعت زوجتي عقيرتها ، قائلة : لم يقل الا كذبا ، يا احلى الاوانس ! ان ابني جورج لم يغادر المملكة ولم يتزوج بعد ٠٠ ومع انك هجرتيه وتخليت عنه ، فانه احبك حبا عظيما لدرجة انه لم يعد يفكر بفتاة سواك ! عندئذ دخل ابني ، بطلعته الجميلة ، مرتديا لباسه العسكري الظريف وقد بدا كأجمل فتى في مثل هذا اللباس .

ان نظرات الانسة ويلموت المتعانة، ودموعها الدافقة ، قد كشفت عن احاسيس قلبها الحقيقية ، فصرخت تقول: لقد خدعت خداعا دنيئا ، ولا شيء يستطيع ان يحملنى على نكث عهودى معك ، فان لم استطع ان اكون لك ، فلن اكون لسواك ابدا !»

وكم كان سرورنا عظيما ، عندما رأينا الواحد يرتدى سريعا بين ذراعى الآخر !!

فقال السيد ثورنهل : « ارى انه من الصعوبة بمكان ان اتوقع اجراء العدل لى في هذا المكان . لكننى عازم على اجراءه مهما كلف الامر ! فمهر الانسة ويلموت لا يستطيع احد ان ينتزعه منى ! لان الصك في حوزتى ، وهو في حرز حريز ! والحق ان مهرها لا «شخصها» هو الذى اغرائنى على الاقدام على طلب يدها للتزوج بها . وما دام المهر بيدي ، فليأخذ «الآخر» من شاء وأحب !»

انتفضنا رعبا لهذه الفكرة الخبيثة اذ ادرك السر وليام حق ابن اخيه في المطالبة بمهر الانسة ويلموت ، لان اتفاقية الزواج بين الطرفين ، كانت قد أجريت على يده هو !

واذ ادركت الانسة ويلموت ما حل بمهرها ، التفتت الى ابنى وسألته ان كانت قيمتها قد نقصت في نظره بسبب فقدان مهرها ؟!

فاجابها : « انى احتج على سؤالك هذا ، ان ضياع مهرى يزيد في سرورى لانه السبيل الى اقتناعك باخلاص حبي لك (٠٠٠)

— « اذن ، فليستول هذا التعسر الشقى على مهرى ! فان كنت سعيدا بدونه فانا كذلك ، اه ما اعظم المبادلة التى قمت بها الان ! لقد استبدلت اسوأ الرجال باعزهم على وافضلهم !»

فصرخ جنكنسون : « كيف ذلك !» ثم التفت الى السر وليام وسأله : « ارجوك يا سيدى المحترم ، ان تقول لى ان كان باستطاعة السيد ثورنهل الاحتفاظ بمهر الانسة ويلموت وقد سبق له وتزوج باخرى ؟»

فرد السر وليام ، « كيف توجهه سؤالا كهذا لا يدل الا على غباوة صاحبه ؟ طبعا لا يقدر على ذلك !»

— « اذن ، يجب ان اعلن صراحة ان عقد الزواج هذا ، لا قيمه له على الاطلاق . لان السيد ثورنهل ، متزوج فعلا !»

فصرخ السيد ثورنهل : « انت تكذب ! لم اتزوج قط شرعا -
بامرأة ! »

— عفوا ، يا سيدى ، انك متزوج ورجائى ان تعترف اعترافا لا تقصا
بالجميل لصديقك جنكنسون الشريف الذى سيحضر لك امرأتك .. »

وللوقت ، خرج من الغرفة ومالبت ان عاد سريعا ..

فصرخت : يا للهشمتى ! هل ارى ابنتى المائتة ؟ وهل المسها ؟ نعم !
انها هى ! انها ابنتى ! فيا لسعادتى وغبطتى .. كنت اظن انك رحلت
عنا ، يا اوليفيا ، الى الابد ! مع ذلك ، اراك ، والمسك بيدى .. نعم ، ويجب
ان تعيشى لكى احظى ببركتك ! »

ثم قال جنكنسون للسيد ثورنهل : « هذه هى المرأة التى عقد زواجك
عليها « شرعا » وبكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ! وهاكم البراءة .. »
اخرجها من صدره ثم وضعها في يد السر وليام واستطرد الى القول : لقد
طلب الى السيد ثورنهل ان احصل له على براءة مزيفة وكاهن مزيف متنكر
لكنى جثته ببراءة صادقة وكاهن حقيقى فاجرى قرانها اجراء لا يقل
احكاما عن اجراء قران اى كاهن اخر ، وكانت غايته من الاحتفاظ بالبراءة
الحصول على المال عن طريق تهديد السيد ثورنهل بها فيما بعد ... »

فسألته : وكيف سمحت لنفسك بأن تضيف الى بؤسى وشقائى ، قصة
وفاة ابنتى ؟؟

فاجابنى جنكنسون ، قائلا : ان الجواب على سؤالك بسيط جدا !
فقد خطر لى ان الوسيلة الوحيدة لتحريرك من ربة السجن واطلاق
سراحك ، هى حملك على الخضوع للسيد ثورنهل وموافقتك على زواجه
بالفتاة الاخرى ، لكنك كنت قد قطعت على نفسك عهدا ، ان لا تدعن ولا
توافق طالما ابنتك في قيد الحياة ! فلم يبق اذ ذاك ، طريق اخر اسلكه
للوصول الى تحريرك واطلاق سراحك الا طريق اقناعك بان ابنتك قد فارقت
الحياة ، بعد ان حملت زوجتك على الاشتراك معى بهذه « المؤامرة » ولم
تتح لنا الفرصة المناسبة لاطلاعك على الحقيقة ، حتى الان ! »

لما وجد السيد ثورنهل ان تأكيداتة قد خذلته ونبذته ظهريا ، سقط على
ركبتيه امام عمه ، واخذ يلتمس منه الرحمة والشفقة ..

فاجابه السر وليام : ان ردائك واثامك اعظم جدا من ان تستحق العفو

والفقراء ، مع ذلك ، لن تهمل احدًا تمامًا . . . فستعطى من المال كفافك ،
أما القسم الباقي منه ، فسيكون منك لهذه السيدة ، زوجتك ، الحارسة
الوحيدة على الاملاك والعقارات التى كانت فيما مضى ملكا لك ! ولن تتوقع
المزيد من المال الا عن طريق محبتهم وعطفها هى وحدها . . .»

حالمًا تراكنا السيد ثورنهل التفت السر وليام حوله ، ثم قال :

« اظن ان الجميع قد نالوا حظهم السعادة الكاملة ما عدا واحدًا او
اثنين ! ولم يبق امامى سوى «عمل» واحد عادل ، يجب القيام به . . . انك
عارف ولا شك ، يا سيدى ، بعرفان الجميل والحقوق التى نحن مدينون بها
للسيد جنكنسون . . . لذلك يجب علينا مكافأته . . . واعتقد ، ان بإمكان
الانسة صوفيا ان تجعله سعيدًا جدًا وسيكون له منى خمسماية ليرة
استرلينية كمهر منها !» حينئذ صرخت صوفيا :

« أأتزوج ؟ لا . لا ، يا سيدى ، لن اقبل بهذا ابدا ! انى افضل الموت
العاجل على ذلك . . . » وبكت

فقال السر وليام : « اذا كان الامر كذلك ، واذا كنت تأبين الزواج منه ،
اذن فما على الا ان اجعلك شريكة حياتى !» ثم ضمها الى صدره وصعق
عليها بشوق وحنان وصاح : « يا أجمل من رأيت بين البنات واكثرهم
ادراكا ورقة ، كيف يمكنك ان تتصورى ان «برتسلك» يغدربك ويخائنك ؟ . . .
او ان السر وليام ثورنهل يكف عن الاعجاب بفتاة لم تحبه الا لشخصه
فقط . . . لقد مرت سنون عديدة وانا ابحت عن امرأة تجهل ثروتى ،
وترضى الزواج بى لمجرد كونى رجلا فحسب ! وبعد ان حاولت ذلك عبثا
الا يجب ان يكون ابتهاجى عظيما « بانتصارى » على فتاة جمعت الى زهافة
احساسها ورقة شعورها ، جمالا الهيا أخذًا . . . » ثم التفت الى السيد
جنكنسون وقال : حيث اننى لا استطيع التخلي عن «حبوبتى» هذه فكل
ما اقدر على مكافأتك به ، هو ان اهبك مهرها . . . فاتصل غدا بمحامى
فيسلمك خمسماية ليرة استرلينية . . .»



وعندما انفجر عمود الصباح ، استقيظت على نور يوم جديد من ايام
سعادتنا الوليدة ، فرأيت ابنتى البكر جالسا بالقرب من فراشى ، اذ جاء

ليزيد في سرورى وفرحى ، باعلامى ان دولاب القدر قد دار دورته لصالحى !
فاخبرنى ان التاجر اللندنى ، الذى كان قد اعلن افلاسه في لندن واضاع على
كل اموالى المودعة لديه ، قد القى البوليس القبض عليه في «انتورب» ،
حيث اكتشفوا ان المال الذى كان في حوزته ، ربا كثيرا على الديون
التي كانت عليه ، وهكذا سيسترد الدائنون جميعا ، كل اموالهم منه
اكاملة غير منقوصة ...

لا حاجة بى الى وصف الفرح العظيم الذى انتابنى بالعرس المزدوج الذى
احتفل به في كنيسة القرية - عرس ابنى جورج وصوفيا - ولا بمأدبة
العرس التي جمعت الجميع حولها ، في جو عابق بالمرح البرى والغبطة الميلاء
... ولم تفتنا دعوة جارنا السيد فلامبورو وابنتيه لمشاركتنا سرورنا
وافراحنا ...

وفور انتهائنا من المأدبة ، امرت برفع المائدة بعيدا ، لكى تتسنى لى
رؤية افراد العائلة ، مرة اخرى ، مجتمعين معا حول الموقد البهيج !
فجلس ولدى الصغيران على ركبتى بينما جلس الآخرون كل منهم بجانب
رفيقه ..

والآن ، وقد تحققت جميع امانى العذاب ولم يبق امامى ما يشغل فكرى ، او
يقلق بالى ، فلقد تعلمت ان اكون صبورا على المكاره ، متجلدا في الشدائد ، خاضعا
في الملمات ... لذلك ، يجب على ان اشكر الله سبحانه وتعالى ، على
عظيم رحمته وكثير بركاته وحنانه ..

- انتهت -

بيروت : ٥ - ١٠ - ١٩٥٤

تصويب الاخطاء المطبعية

صواب	خطأ	سطر	صفحة
غيابه	عيابه	٥	٦
نقائصه	نقاصه	٢٦	٦
يذهبون	بذهبون	١	٧
تلفتت	تلفتت	٢٠	٩
برفع	بدفع	٢١	٩
ولو لم يكن	ولم يكن	٢٢	٩
المتزوجين	المقيمين	١٠	١٠
كآبة	كآبو	٢٨	١٢
بسلامة	بسلام	٢١	١٣
مبادئي	مباديء	٢١	١٣
مزرعة	مزرعة	١١	١٤
خبره	خبرة	١٨	١٦
فارغ	فارغ	٢١	١٦
السر	السيد	٢٧	١٧
هباته	حياته	٧	١٨
الشجيرة	الشعبية	١٢	٢٠
غير	غير	١٠	٢٦
تكرمنا	تركرمنا	١٣	٣٨
اخلاقها	اخلاقها	٢٢	٤١
التنبؤ	التنؤ	٢٥	٤٢
غير	غبر	٢٥	٤٩
قائلاً	خائلاً	١٢	٦٨
ممدداً	ممدأ	٥	٨٦
خطرت	خطرت	٢٣	٩١

قريباً يصدر :

الفنان الاحمر

تأليف الروائي الانكليزي الكبير

جورج أورويل

تعريب

حسن الناطور



تصدر في ١ و ١٥ من كل شهر

١١٢ صفحة - ٥٠ غوشاً

توزيع : المكتب التجاري - بيروت



بقلم : خيرات البيضاوي

وهي السلسلة الوحيدة في العالم العربي التي تجلو غوامض المشاكل العالمية ، وتشجب الاستعمار الذي هو في جميع صوره واشكاله ، آفة انسانية تغض من قدر الكرامة الانسانية وتؤيد جهاد كل شعب يهب في اية ناحية من الدنيا للتخلص من اضراره واوضاعه ومحو دنسه وعاره .
صدر منها :

- ١ - حرب التحرير في الهند الصينية
- ٢ - ايران ترقص على كف عفريت (نقد)
- ٣ - وميض النار في المغرب العربي (نقد)
- ٤ - المانيا بين الشرق والغرب
- ٥ - العملاق الأصفر
- ٦ - الهند وسياسة الحياد

يصدر قريباً الكتاب السابع :

سياسة اميركا الخارجية

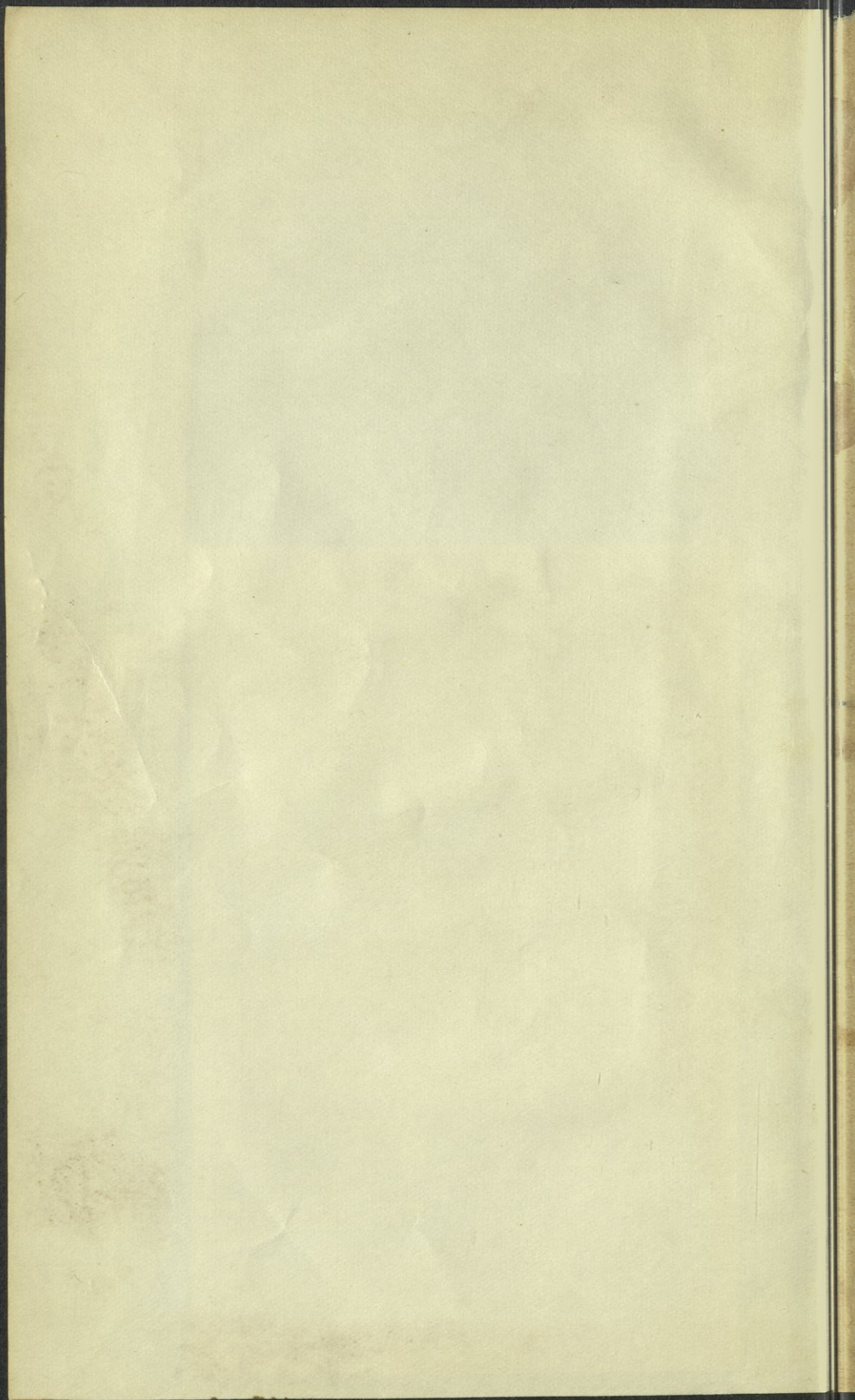
دار البيضاوي

شارع البرلمان - بناية بشارات

ص. ب. ٢٩٩٥

بيروت - لبنان





[illegible]

غولد سميث ، اوليفر

فيس واكفيلد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031691

American University of Beirut



